محمد عبد الله السمـــان

حسن البنا ..

الرجـــل والفكـــرة

الطبعة الأولى

١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م

دار الاعتصام

مقدمة

فى أوائل فبراير سنة ١٩٥٠ ، جلست مع الأخ حسن عاشور ، نفكر فى أمر ، لم نظن معاً أنه كان يخطر على بال أحد . . فالذين يتوقع منهم أن يفكروا فى مثل هذا الأمر ، بعضهم لهم ما يشغلهم خلف الأسوار الوهمية فى طور سيناء ، أو خلف الأسوار الحقيقية فى معظم سجون مصر ، والبعض الآخر لهم ما يشغلهم خارج الأسوار ، من الضغوط الإرهابية عليهم ، تلك التى كان يباشرها القلم السياسى ، من أروقة السفارة البريطانية بالقاهرة ، ولم تدع لإنسان أن يفكر ،

كما لم تدع لأعصابه أن تحتمل مجرد التفكير فى أى من الأمور . . ولو كان أمر معاشه ، فما بالك بأمر ، سوف يجر كثيراً من المتاعب ، التى قد لا يحتملها بشر . .

قال الأخ حسن عاشور :

بقيت أيام معدودة على الذكرى الأولى للإمام الشهيد . . فهل ستمر فى صمت ؟ أو على الأكثر ، سوف تحتفى بها مشاعرنا وأحاسيسنا ليس أكثر ؟

وقلت له :

عجيب أن تفكر فيما يشغل تفكيرى منذ أيام ، ولـكن ما الحيلة ؟ إن الذين هم الآن خلف الأسلاك ، فى الطور ، أو فى « الهاكيستب » ، والذين هم خلف

الأسوار ، فى بعض سجون مصر ، لابد أن يحتفلوا بالذكرى بوسائلهم الخاصة ، ولن يعدموا وسيلة أو أكثر ، إنهم لن يخشوا شيئاً ، ولن تستطيع دولة القلم السياسى أن تفعل بهم أكثر مما فعلت . . . نحن لم ننس بعد أنهم أحسن منا حالا .. فهم خلف الأسلاك أو الأسوار ، يملكون حرية الكلمة فيما بينهم ، وإن كانوا لا يملكون حرية الحركة إلا فى أضيق الحدود .. أما نحن فلا نملك حرية الكلمة ، ولا حرية الحركة ، ألسنتنا معقودة ، وخطواتنا مرصودة ، بالرغم من أننا خارج الأسلاك والأسوار . . !!

وقال الأخ حسن عاشور :

المهم . . لابد من عمل . . صحيح أن الأحكام العرفية

قائمة على قدم وساق . . والإرهاب مسلط — لا على الألسنة والأبدان فحسب — بل على القلوب والعقول والمدارك . . وأعجب من هذا كله ، أن الحراسة المشددة على قبر الإمام الشهيد ، لم ترفع ولم تخفف . .

وقلت :

أنت تعلم أنى لا أملك إلا إيمانى وقلمى . . إيمانى يشجعنى على أن أكتب شيئاً ، ولا أحسب قلمى إلا مستعداً لأن يستجيب لإيمانى . .

وقال الأخ حسن عاشور :

دع الباقى على الله ثم على . . .

وفى يوم الذكرى ، كان باعة الصحف يوزعون على الناس صورة للامام الشهيد ، كتب عليها بضعة سطور ،

قيل فيها كل شيء ، وقد حرصت على أن أوقع باسمي ، لا رغبة فى حب الظهور ، ولا إرضاء لشهوة غرور ، ولكن لعاملين ، اقتنعت بهما :

العامل الأول : الحيلولة دون أن ينشط القلم السياسى ، ويلقى الشبهات على عدد من الإخوان ، إذ لا تتجه أنظاره إلا إلى شخصى . . وفى التحقيق معى ، أستطيع أن أنفى عن نفسى أى صلة بالصورة ، إذ ليس من المعقول أن أوقع على كلام ، فيه اتهام صريح للقصر ، بأنه هو الذى دبر اغتيال الإمام الشهيد . .

العامل الآخر : التوقع من أن تأثير الكلام الممهور بالتوقيع ، أكثر تأثيراً لدى الناس من الكلام المجهول التوقيع ، وإن كان هذا التوقع لا ينتج ثماره فى كل الأحوال . .

وهذا بالإضافة إلى أننا كنا حريصين ، على أن توزع النشرة على جمهور الناس ، عن طريق باعة الصحف والمكتبات ، بسعر زهيد للغاية ، ولو أن النشرة جاءت بلا توقيع ، لأحجم معظم الموزعين عن عرضها وبيعها ..



هذه الخواطر .. مضى عليها أكثر من ثمانية وعشرين عاما ، وقد قفزت إلى الذاكرة منذ أسابيع معدودة ، عندما بدأت مجلة الاعتصام فى نشر سلسلة أحاديث الثلاثاء للإمام الشهيد . من إعداد شيخنا العالم الجليل الوفى ، فضيلة الشيخ أحمد عيسى عاشور ، والذى كان قد سجلها بقلمه درساً درساً ، من فم الإمام الشهيد ..

وهذا ما جعلنى أتحمس لتأليف كتاب موجز ، تحية لذكرى الرجل والفكرة : الرجل الذى ضحى بدمائه من أجل الفكرة . . والفكرة التى استولت على مشاعر الألوف المؤلفة ، من شباب المسلمين وكهولهم ، والبراعم المسلمة التى تفتحت عليها . . وصمدت أمام هذه السنوات الطوال العجاف ، بكل ما حملت من مخططات الاستعمار ، وأدواته من الأنظمة الوطنية شكلا ، العميـلة حقيقة ، والمسلمة لفظاً ، والمتمردة على الإسلام جوهراً ومعنى . .

ولم يكن عجيباً ، أن يقول الأخ الكريم حسن عاشور ، عندما أبلغته ما أزمعت عليه : « إن هذه الفكرة ، راودتنى – علم الله – منـذ أيام ، حتى

لقد تحدثت بشأنها ، مع بعض الإخوة الأفاضل .. فعلى بركة الله .. »

وقلت : أجل على بركة الله .. وبعون الله . . وبتوفيق من الله عز وجل ..

★ ★ ★

وبعد :

فليس هذا الكتيب الصغير الحجم ،تأريخاً للإمام الشهيد ، ولا تقويماً لفكرة « الإخوان المسلمون » ، التى قامت على عاتقه منذ لحظتها الأولى ، وعلى عواتق الخلصاء من المسهمين فى تأسيسها ، وإرساء قواعدها ، الذين منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . . وإنما هو – أى هذا الكتيب – بمثابة قبس

من الخواطر ، ليسلط بصيصا مشعاً من الضوء ، على أفكار الشباب المسلم ، الذى لم يشأ له حظه أن يرى الرجل أو يلتقى به ، أو يستمع إليه ، ولا أن يعيش مع الفكرة التى دعا إليها الرجل ، يوم كانت ملء السمع والبصر ، فى الآفاق الإسلامية القريبة والبعيدة ، وإنما قدر لهذا الشباب المسلم ، أن يعايش الفكرة بوجدانه وأحاسيسه ومشاعره ، بعد أن تلقت أفدح الضربات ، وأصبحت – لا جزءاً من المحنة . . وإنما المحنة مجسدة فيها – بل بعد أن أصبحت – ولا تزال – قذى فى أعين الأنظمة ، فى ديار المسلمين قاطبة ، تخافها وتخوف منها ، وترهبها وترهب بها ، وبعد أن أصبحت – ولا تزال – مصدر فزع فى نفوس الاستعمار بشتى ألوانه .. ومصدر

قلق فى أدمغة القوى المعادية للإسلام ، بكل مذاهبها واتجاهاتها . . .

إذن . . حسبنا من هذه العجالة أن يعرف شباب الإسلام ، اليوم ، شيئاً عن الرجل والفكرة ، الرجل هو الإمام الشهيد الأعزل « حسن البنا » ، والفكرة هى « الإخوان المسلمون » .

محمد عبد الله السمان

الرجـــــل والفكـــرة

يقول فضيلة الشيخ أحمد عيسى عاشور فى تقديمه لحديث الثلاثاء ، الذى بدأت « الاعتصـــام » بنشره منذ قريب :

« . . كان الناس يرون حسن البنا غريبا فى محيط الناس . . بل وفى محيط الزعماء . . بطابعه وطبيعته . . فقد صنع تاريخاً . . وحول مجرى الطريق . . فلما مات . . كان غريباً غاية الغرابة فى موته . . فلم يصل عليه فى المسجد غير والده . . ولم يمش خلف نعشه أحد من هؤلاء الأتباع الذين كانوا يملأون الدنيا . . لسبب بسيط . . هو أنهم كانوا فى هذا الوقت يملأون السجون .

وإذا كان الإمام الشهيد حسن البنا قد مات . . فإن فكره لن يموت . . وتأثيره باق وممتد . . يتمثل فى أجيال صنعها على مائدة الإسلام بأسلوب العصر . . ويتمثل فى هذا المد العالمى للحركة الإسلامية ، التى وضع – رحمه الله – بذورها الأولى . . وحسن البنا بعد كل هذا . . هو مجدد الإسلام فى القرن العشرين . . »

أمام هذه الكلمات الطيبات ، التى تبعث على الإحساس بصدقها وإخلاصها ، فقد عبرت عن الرجل والفكرة فى إيجاز بليغ ، حتى لا يكاد الإنسان يجد بعدها استجابة من القلم فى أن يكتب أكثر منها . .

ليس هناك أدنى شك فى أن الإمام الشهيد حسن البنا ،عاش غريبا فى محيط الناس ، هؤلاء الناس ألفوا حياة الدعة ، والاستسلام للواقع مع مهانته ومرارته ، وأنسوا إلى السلبية المطلقة واطمأنوا بها ، وركنوا إليها ، ولم يعودوا يهتمون إلا بمشكلاتهم الخاصة ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يتحملوا إلا تبعات تخصهم وحدهم دون سواهم . . أما الإسلام فلا شأن لهم به إلا فى إطار أداء شعائره الخمس ما استطاعوا إليها سبيلا . . وبالنسبة لمن كان فيه بقية من دين ، أو رمق من إيمان . . وأما قضايا المسلمين . . فلا يكاد يحس بها أحد من هؤلاء الناس . . الأقليات المسلمة المضطهدة الضائعة . . والأكثريات المسلمة المضيعة المغلوبة على أمرها . . هؤلاء وأولئك على أرفف النسيان ، وفى زوايا الإهمال . . الأقليات المضطهدة الضائعة تكافح كفاح اليائس ، وتناضل نضال المتبرم ، متواضعة فى سلاحها المادى . . ضحلة فى سلاحها الروحى . . والأكثريات المضيعة المغلوبة على أمرها ، فليس لديها أدنى تفكير فى النضال ، ولا شروى نقير من العزم على الكفاح . . أصبحت فلسفتها فى الحياة فلسفة العاجز : ليس فى الإمكان أبدع مما كان . .

وأيضا لقد عاش الإمام الشهيد حسن البنا ،غريبا فى محيط الزعماء .. فهو من ناحية ، أبت نفسه هذه الزعامات التقليدية التى هى أوهن من بيت العنكبوت ، ومن ناحية أخرى ، أبى عليه هؤلاء الزعماء أن يكون واحداً منهم ، لأنه سيكون بمثابة كاشف لعوراتهم وسوءاتهم .. إن الزعامة عندهم ، فن واحتراف ، ومضاربة فى « بورصة » الأوراق السياسية .. والزعامة عنده ، تقوم مقام المربى ، الذى يربى الروح والعقل ، ويصقل الوجدان والنفس ..

هـــذا وذاك :

عاش الإمام الشهيد حسن البنا غريبا فى محيط الناس .. الذين كانوا يغطون فى سبات عميق ، لا يكادون يفيقون منه ، ويستمرئون غفلة عميقة لا يكادون ينتبهون منها ، وفى سلبية مطلقة ، اطمأنوا بها ، وركنوا إليها ، واستسلموا لها .. فإذا بالرجل يصيح فيهم ، فى فمه نفير ، وفى يده مصباح ، وفى صدره كتاب الله ، وفى وجدانه الإسلام فى صبغته الأصيلة ..

لقد هتف ، بكلمات موجزة ، سهلة إلى قلوب الناس ووجدانهم :

الله غايتنا .. والرسول زعيمنا .. والقرآن دستورنا .. والجهاد طريقنا .. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .. الله أكبر ولله الحمد ..

وهتف بكلمات موجزة ، سهلة ، إلى عقول الناس وأذهانهم :

الإسلام : دين ودولة .. مصحف وسيف ..

وعاش الإمام الشهيد حسن البنا غريبا فى محيط الزعماء . . الذين كانوا يجيدون احتراف التمثيل ولا يبالون صدق الزعامة . . ويعتزون باسم الزعامة ولا يكترثون لجوهرها ، لأن جوهر الزعامة الأصيلة ، أن يعطى الزعيم الناس ، أضعاف ما يأخذ منهم ، وأن يضفى عليهم من عقله ووجدانه ، أضعاف ما يضفون عليه من الثقة به . . فالزعيم الحق هو الذى يضع للناس مبادئ ، ويصوغ لهذه المبادئ مناهج ، ثم يحول هذه المناهج إلى خطة عمل يقودها بنفسه فى مواقع العمل . . وليس الذى كل ما يقدمه للناس خطبة عصماء ، وشعارات جوفاء ، ويتلقى منهم هتافات عالية تشق عنان السماء ، وتصفيق يخترق أجواز الفضاء . . لذلك رفض الإمام الشهيد حسن البنا ، أن يكون زعيما على هذه الشاكلة .. رفض أن يهتف به ، أو يصفق له .. رفض أن يكون قديسا يضطلع بأعباء الكهنوت السياسى . . وآثر أن يعيش غريباً فى محيط الزعماء . . ! !



كان حسن البنا :

عبقرية فذة ، وبصيرة نافذة . . تمثلت فيه شجاعة نادرة ، وحكمة بالغة ، أيقظ الناس وأضاء لهم الطريق إلى الإسلام الصحيح . . الذى رد إليه اعتباره بعد أن صحح مفاهيمه . . كان كالباحث عن

الحقيقة فى وضح النهار ومعه مصباحه . . لم تعيه الحيلة . . ولم يضق بخصوم فكرته من المسلمين شكلا ، أو من أعداء الإسلام حقيقة . . وإنما هم الذين ضاقوا به وبفكرته ، وتعاونوا معاً على إنهاء حياته ، وتوهموا أنهم سوف يضعون نهاية لفكرته . . كانوا واثقين من أن الرجل لا يخشى مواجهة الموت ، ومن أنهم هم الذين يخشون أن يواجهوه بالموت . . لذلك قرروا أن يغتالوه ليلا ، وهم يعلمون أنه أعزل من السلاح . .

ولقى الرجل ربه شهيدا . . وخاب ظنهم فى اغتيال فكرته . . جهلوا أن الفكرة لا تغتال بسلاح مادى لأنها أقوى من المــادة . . ولا بسلاح إرهابى . . لأنها فوق مستوى الإرهاب . . كل مايستطيع أن يفعله السلاح بنوعيه : المادى والإرهابى ، أن يشل حركة أتباعها ، ويعقد ألسنتهم . . ولكن لا يستطيع – مهما تفنن فى أساليبه – أن يتمكن من القلوب والوجدانات والمشاعر ، التى هى المكان الطبيعى للفكرة القائمة على الإيمان بالله ، والثقة فيه ، والاطمئنان إليه . .

* * *

كان بدهيا أن يستجيب الشباب المسلم المثقف ، للرجل والفكرة .. الشباب الذى لديه استعداد لأن يكون مسلماً : حقيقة وجوهراً ومعنى .. ولديه استعداد أكبر لأن يتحمل تبعات ما هو مقدم عليه ، وأن يحمل

على عواتقه أعباء المواجهة للفكرة ، من مخططات القوى الصليبية والصهيونية والماركسية ، وأدواتها وعملائها من الأنظمة الداخلية الحاكمة بأمرها ، والقابضة بأيد من فولاذ على نواصى الأمور ، ومقاليد الأشياء ، ومكونات وسائل الإعلام الهابط . . التى تملكها . . لا تقدس الكلمة ولا تعرف معنى لقداستها . . ومقومات الغوغاء التى تعدهم للمناسبات تحت أسماء لا مسميات لها إلا فى أذهان الأنظمة ، وتحمل بأفواهها شعارات لا مدلول لها إلا فى أدمغة الأنظمة . . وكل مؤهلات هؤلاء الغوغاء : حناجر قوية مستعدة للهتاف فى أى وقت . . . وأكف فتية مؤهلة للتصفيق . . وقذف الحجارة والطوب . . وأن تكون رهن الإشارة فى أية لحظة من ليل أو نهار . .

وكان بدهيا أن يعتبر نفسه – وسط هذا الضجيج من الاحتراف السياسى وتجارة الزعامات – كالفيلسوف الباحث عن الحقيقة فى وضح النهار ، وفى يده مصباح . . وحتى الحقيقة ذاتها لها خصوم وأعداء . . لها مناوشون ومناوئون . . صحيح أن الحقيقة لابد أن يكون لها أتباع يعتقدونها ويعتنقون مبادئها ، يذبون عنها ويبذلون دماءهم من أجلها . . إلا أن هؤلاء الأتباع لابد أن يكونوا من القلة بمكان . . هم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود . . هم كالبصير وسط جموع وحشود متلاطمة من العمى بصائر وأبصارا . . وهذه

سنة الله فى الكون ، تعامل على أساسها أنبياء الله ورسله ، والمصلحون بعدهم . . وبالرغم من هذا ، فإن سنة الله فى الكون ، قد اقتضت أيضا : أن الحقيقة خالدة لا يدركها الموت ، ولا يمسها الوهن ، ولا يلحقها الهرم . . وبمقتضى هذه السنة الإلهية أدى الرسل والأنبياء ، والهداة والمصلحون رسالاتهم ، لم يصبهم يأس ، ولم يخالطهم ملل . .

* * *

وبعد . . .

فما أكثر ما هوجم الرجل والفكرة معاً . . لكن هذا الهجوم انبثق ممن لهم مصلحة فى ألا تقوم للفكرة قائمة ، وألا تعيش للرجل ذكرى . . ونحن نلتمس بعض العذر لمن ظلوا يهاجمون ويناوئون . . والفكرة قائمة لها ألسنة وأقلام يملكون وسائل الدفاع عنها . . أما الذين دأبوا على الهجوم والمناوءة والفكرة تعيش محنتها فى أعصب الظروف وأقساها ، فأجدر بنا أن نسقطهم من الحساب ، وأجدر بهم أن يعتبروا أنفسهم من سقط المتاع ، وأما الذين يكتبون التاريخ من عل . . لأنهم هم القوة . . والقوة هم . . يقولون فلا يناقش لهم قول ، ويفترون فيصفق لافترائهم ، ويدعون فيهتف لادعائهم . . ولا مجال لأحد أن يناقش ما يقولون . . ولا أن يجادل فيما يفترون . . ولا أن يشكك فيما يدعون .. فهؤلاء ندعهم وحسابهم على الله .. لأنك لا تملك إزاء من

تخلى عن الضمير وأعطى ظهره لأخلاق الرجال . . معتزا بقوته ، فخوراً بسلطانه وسلطاته . . إلا أن تدعه وشأنه ، وحسابه على الله . .

ليفرح الذين لا يزالون يغمزون الرجل والفكرة ما شاء لهم أن يفرحوا . . فالرجل لم ينته باغتياله ، والفكرة لم تمت باعتقالها . . وقد اندثر كل افتراء عليهما . . وسيظل يندثر كل تجن عليهما . . وسوف يبقى الرجل ، وتبقى الفكرة . . ما بقيت السموات والأرض . !

* * *

الرجل في الميزان

- عبقرية فذة.. وبصيرة نافذة
- شجاعة عليّ.. وحكمة معاوية
- مؤذن.. ومصباح

عبقرية فذة.. وبصيرة نافذة

العبقرية وحدها لا تكفي ولو كانت فذة . . هذا لمن يتصدون للإصلاح . . بل لابد من البصيرة النافذة . . فالعبقرية نتاج عقل ناضج ، وفكر ثاقب ، وذهن صاف ، وأفق واسع ، ثم قدرة على الصياغة والتعبير . . ولكن أية قيمة لهذا النتاج إذا هو لم يقدم العطاء للناس ؟ أعني إذا هو لم يتحول إلى منهج وخطة عمل ليعايش الناس ، ويتجاوب الناس معه . . وعندئذ لابد من البصيرة النافذة لتقود المســـار . .

كان كل من أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، عبقريا في سياسة الأمة ، وكل من عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص . . عبقريا في سياسة المعارك . . ولكن نجاح هؤلاء جميعاً في سياستهم – رضى الله عنهم – لم يقم على العبقرية الفذة وحدها ، بل لقد رافقتها البصيرة النافذة . .

إنه لمن قبيل تحصيل الحاصل أن نقول : إن حسن البنا كان يجمع بين العبقرية الفذة ، والبصيرة النافذة . . والعبقرية والبصيرة إنما

تقدران بمقدار العقل والسلوك والثمرة . . والعمل الذى قام به حسن البنا يشهد له بعبقرية فذة ، وبصيرة نافذة ، ومع شىء من التواضع . . وأقول : مع شىء من التواضع . . لأن ألفاظ اللغة لا تسعفنا بصفات أكبر وأجل وأعمق من صفتى : العبقرية الفذة ، والبصيرة النافذة . .

وقد يتوهم متوهم : أن حسن البنا لم يفعل أكثر من أنه دعا الناس إلى الخير ،فاستجاب له البعض ، فكون من هذا البعض جماعة ، وما أكثر الدعاة إلى الله ، الذين ألفوا جماعات دينية كانت ملء السمع والبصر ، ووضعوا لها مبادئ وشعارات ، وصاغوا لها أفكاراً ولوائح سلوك . .

مثل هذا المتوهم يجب أن نفسح صدورنا لما يقول ، وحسبنا منه أن نعتبره متوهماً ، وحسبه منا أن يكون كذلك فى نظرنا ، وهذا أوذاك لا يحول دون أن نناقش هذا التوهم فى هدوء . .

نحن نعترف — بادئ ذى بدء — بأنه على مسار التاريخ القديم والمعاصر ، ظهر زعماء دينيون ، وجماعات دينية لا حصر لها . . ولكن يجب أن يكون فى الحسبان : أن هناك فرقاً شاسعاً بين الرجل : حسن البنا ، والفكرة : جماعة الإخوان،من جانب ، وبين الزعماء الدينيين وجماعاتهم من جانب آخر . .

فأولئك الزعماء الدينيون – إلا أقل القليل منهم – لم يتمتعوا بما كان يتمتع به الرجل من عبقرية فذة ، وبصيرة نافذة ، بل حتى هذا القليل منهم كانت له مواهب محدودة،وعزائم متواضعة ، وأهداف أكثر تواضعا . .

أما الجماعات الدينية ، فلم يكن الهدف منها إلا أن تشغل حيزاً من الفراغ . . بل إن معظمها قام من فراغ ، واستقر أيضا فى فراغ ، كان كل ما تسعى إليه : هو أن يعود الناس إلى الإسلام . . لكنه الإسلام : الشكل لا الحقيقة ، والغرض لا الجوهر ، واللفظ لا المعنى ، وبمعنى آخر أدق : هو خلق جيل متدين من الناس . . لكن ما هو مفهوم التدين فى نظر هؤلاء الناس ؟ إنه أداء الشعائر ما استطاعوا إلى أدائها سبيلا ، والتخلق الذاتى بالأخلاق الاسلامية جهد استطاعتهم . . :

أما العمل على بعث الوجود الإسلامى ، حتى يسترد الإسلام اعتباره . . أما العمل على تقديم الفكر الإسلامى فى صياغة جديدة مقنعة . . أما العمل على إثارة قضايا الإسلام وقضايا الشعوب المسلمة . . أما مواجهة التحديات التى تتحدى الإسلام : عقيدة وفكرا ، ونظاما وتراثا ، سواء من داخلنا أم من خارجنا . . أما التصدى للأنظمة التى تسعى جاهدة على تقليص ظل الإسلام ، وحصره فى أضيق الحدود . .

كل هذه المسائل لم تكن تشغل تفكير تلك الجماعات ، إلا أقل القليل منها . . وأقل القليل من هذه المعانى أيضا . .

★ ★ ★

ولنعد من حيث بدأنا :

لقد تجلت عبقرية حسن البنا فى أنه استطاع أن يعرض الإسلام فى صياغة جديدة ، جذابة مرنة ، سهلة مقنعة ، أعانه على ذلك فى مجال الصياغة : عقلية ناضجة ، وفكر ثاقب ، وأفق واسع ، وأعانه على ذلك أيضا فى مجال الإقناع قدرته الفائقة على التعبير . . وقدرته الفائقة على التأثير . . ثم قدرته الفائقة على العطاء الإسلامى السخى . . الذى ينفذ إلى القلوب والمشاعر والوجدانات . . قبل أن يستولى على الألباب والأذهان . .

يقول العلامة أبو الحسن الندوى فى رسالته : « أريد أن أتحدث إلى الإخوان » وهو بصدد حديثه عن شخصية حسن البنا :

« كانت شخصية فريدة ، يظهر من حياة صاحبها ونشأته . أنها قد أعدت لهذا الأمر العظيم إعداداً ، كان يجمع بين الفهم الواسع للإسلام ، والغيرة الملتهبة عليه ، والنشاط الدائم والعمل المتواصل لإعلائه ، والخطابة الساحرة ، والشخصية الجذابة ، والنفوذ العميق فى نفوس أصحابه وإخوانه أو بلفظه هو نفسه « الفهم الدقيق ، والإيمان

العميق ، والحب الوثيق . . » ولابد للزعيم المسلم ، وقائد الدعوة الدينية أن يجمع بين هذه الصفات . . »

كذلك تجلت بصيرة حسن البنا النافذة فى أنه استطاع أن يقيم بناء جديداً للدعوة الإسلامية ، وأن يقدم صياغة جديدة للفكر الإسلامى . . واستطاع أن يرد للمفاهيم الإسلامية الصحيحة اعتبارها ، بعد أن ظلت آماداً طوالا غائبة عن أذهان المسلمين البسطاء ، قابعة فى أدمغة القلة من المسلمين المثقفين ، لا تكاد تغادرها إلى ألسنتهم حتى تعود إليها ، كذلك استطاع أن يحول المعانى الإسلامية إلى أفعال ، بعد أن ظلت آماداً طوالا مجرد ألفاظ تقال من فوق المنابر ، أو حروف تدون فى الصحف أو الكتب . . ونستطيع أن نقول فى إيجاز : إن حسن البنا بعث الحياة والحركة فى الإسلام من جديد . . بعد أن ظل آماداً طوالا متوارياً عن الشعوب المسلمة ، والشعوب المسلمة نيام عنه . .

ولا يجهل منصف أن حسن البنا قد تجلت بصيرته النافذة فى إخلاصه للفكرة التى قامت على عاتقه ، ووضع اللبنة الأولى فى بنائها بيده ، وغذاها بعقله وروحه ،وكل نبضة من نبضات قلبه . . كما تجلت بصيرته النافذة فى فهمه العميق للأمور ، وفى تقديره الدقيق للظروف

وفى قوة أعصابه ، ورباطة جأشه ، وثبات جنانه ، وفى طاقة احتماله فى أحلك الأوقات . .

صدر قرار حل الإخوان فى الثامن من ديسمبر عام ١٩٤٨ ، أصدر القرار الإنجليز ، ونفذه النقراشى رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، ومصر يومئذ فى معركة مع اليهود فى فلسطين . وشباب الإخوان ألوف يحملون السلاح ويحاربون جنبا إلى جنب مع الجيوش العربية ومن بينها جيش مصر . . وذهب بعض الشباب الذين لم يصدر قرار باعتقالهم إلى المرشد العام حسن البنا ، ليستأذنوه فى المقاومة حسب الطاقة . . فماذا كان منه ؟ لقد حذرهم مغبة هذا الأمر ، وأوضح لهم ببصيرته النافذة : أن الإنجليز هم أصحاب القرار بحل جماعة الإخوان ، وما النقراشى إلا أداة طيعة فى يد الانجليز ، الذين لم يصدروا قرار الحل إلا على أمل أن تحدث مواجهة بين الإخوان والحكومة، ويغتنم الانجليز الفرصة للتدخل المباشر فى شئون البلاد ، وتتجدد مأساة حركة عرابى . .

وذكرهم المرشد بالقصة المشهورة عن نبى الله سليمان الحكيم ، حين اختصمت إليه امرءتان على طفل وليد . . وادعت كلتاهما بنوته . . فحكم بشطره نصفين بينهما ، وبينما وافقت المرأة التى لم

تلد على قسمته ، عز ذلك على الأم الحقيقية ، وآلمها قتل فلذة كبدها ، فتنازلت عن نصيبها فيه ، لقاء أن يظل الطفل متمتعاً بحياته . .

ثم قال لهم المرشد العام :

« إننا نمثل نفس الدور مع هؤلاء الحكام . . ونحن أحرص منهم على مستقبل هذا الوطن وحرمته . . فتحملوا المحنة ومصائبها . . وأسلموا أكتافكم للسعديين ليقتلوا ويشردوا كيف شاءوا ، حرصاً على مستقبل وطنكم ، وإبقاء على وحدته واستقلاله . . »

أية بصيرة أنفذ من هذه البصيرة ؟ أكانت هذه البصيرة النافذة تسمح للمسلم أن يقاتل أخاه المسلم ؟ لو أن جنود الانجليز كانوا هم الذين يتولون الرد على مقاومة الإخوان ، لتغير الوضع ، ولما شجعهم على الاستسلام . . لكن أن يقاتل المسلم أخاه المسلم . . فلا . . وألف لا . . أليس أفراد قوات البوليس مسلمين ومصريين معاً ؟

والمجال لا يسمح على الإطلاق بالمقارنة :

أذكر أن الرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » خطب إثر حركة الانفصال — انفصال سوريا عن مصر — عام ١٩٦١ ، وكان مما جاء على لسانه : كان فى استطاعتى أن أبعث بقوات إلى سوريا لتأديب الانفصاليين . . لكننى قلت : « لن أسمح للعربى أن يشهر السلاح فى وجه العربى » وظل التصفيق لهذه الكلمات — تصفيق السذج المستمعين —

دقائق عديدة ، ودوت الهتافات بحياة الزعيم العربى الأصيل . . وبغض النظر عما حدث – حيث كان الزعيم « الوطنى الصادق » أرسل مئات من جنود المظلات هبطوا فى حلب ، وقبضت على جميعهم قوات الجيش السورى . . بغض النظر عن هذا ، فلم تمض شهور معدودة حتى كان الزعيم « الوطنى الصادق » يبعث بجيش مصرى عربى إلى دولة اليمن ليقاتل شعبا عربيا هناك ، أعزل من السلاح ، دون ذنب جناه ، ويفعل به ما هو شبيه بما فعله اليهود بعرب فلسطين فى اللد والرملة ودير ياسين . .

الحق أن الإنسان يقف مدهوشا أمام بصيرة الرجل النافذة . . هذه البصيرة التى هيأته للفهم العميق للأمور . . عندما صدر قرار الحل كان شباب الإخوان – كما سبق أن قلت – فى أرض المعركة بفلسطين .. وقدر الرجل أن قرار الحل قد يثير ثائرة المجاهدين . . وليس فى استطاعته أن يكتم الأمر عنهم ، وإذاعات الدنيا قد أذاعت الخبر فى شماتة ، ولا سيما إذاعات الغرب الصليبى ، وإذاعات الشرق الشيوعى . . وبالرغم من اطمئنان الرجل إلى إيمان الشباب المجاهد ، الذى طالمـــا هتف من أعماقه : الجهاد سبيلنا . . والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا . . فهذا الشباب سوف يكون فوق مستوى المحنة . . وهذه المحنة مهما بلغت ضراوتها ، لن تفت فى عزائمهم ، ولن تشغلهم

عن المهمة التى جاءوا من أجلها ، وهى أشرف مهمة . . بالرغم من هذا كله ، بعث برسالة إلى المجاهدين فى فلسطين يقول فيها : « إنه لا شأن للمتطوعين بالحوادث التى تجرى فى مصر . . وما دام فى فلسطين يهودى واحد يقاتل . . فان مهمتهم لم تنته » .

• • •

إن المقام لا يتسع لضرب الأمثلة . . وما أكثرها فى حياة الرجل . والتى تجلت فيها عبقريته الفذة ، وبصيرته النافذة ، والتى لا يسع الإنسان حيالها إلا أن ينحنى إجلالا وتقديراً لها . . وتبدو هذه العبقرية الفذة أكثر ما تبدو من خلال الشدائد التى تنوء بحملها الجبال الرواسى ، والتى لا تطيقها إلا أعصاب من فولاذ . .

بعد مصرع النقراشى فى أواخر ديسمبر عام ١٩٤٨ ، عرض الإمام الشهيد على حكومة إبراهيم عبد الهادى خليفة النقراشى فى الحكم والإرهاب معاً ، أن تعتقله ، والحق أنه جدد العرض الذى سبق أن عرضه إثر حل الإخوان ليشارك فى المحنة ، ورفض عرضه فى المرتين ، وأيقن الرجل فى المرة الأخيرة أن هناك أمراً يدبر له ، لا سيما وأن الغوغائيين هتفوا فى تشييع جنازة النقراشى : رأس البنا برأس النقراشى . . كذلك أيقن الرجل أن حكومة السعديين وعلى رأسها إبراهيم عبد الهادى لا تمت إلى المدنية بصلة ، إن عقليتها تحولت

إلى عقلية تحت مستوى عقليات العصبيات الأسرية فى أعماق الصعيد الأقصى ، التى لا تقيم وزناً – فى مجال الثأر – للقانون ، وإنما تقيم كل وزن لشريعة الغاب التى تعتقدها وتعتز باعتناقها لها . .

فى مثل هذه الظروف التى تهدد حياته ، وتتوعد دماءه ، لم ينس الرجل مستقبل الدعوة ، وفى ثبات إيمانه بقضاء الله وقدره ، كتب وصيته إلى أحد أعضاء مكتب الإرشاد الذى استثنى وحده من الاعتقال دون سائر أعضاء المكتب ، بل ولن يتوقع اعتقاله فى المستقبل ، فصهره العالم الأزهرى الكبير عضو فى الهيئة السعدية الحاكمة ، وعضو فى نفس الوقت فى البرلمان السعدى ، هذه الوصية تلقى على عاتق العضو فى مكتب الإرشاد مسئولية الدعوة إذا نفذ قضاء الله فى المرشد .. وسيظل مسئولا إلى أن يخرج الإخوان من المعتقلات ويختاروا مرشداً لهم . .

لا أظن أننا بحاجة إلى التعليق أو التعقيب . .

* * *

وبعد . .

فلعل أحداً يظن أننا نكتب عن الرجل من خلال عواطفنا . . والحق أننا لا نكتب إلا ونحن مجردون من هذه العواطف . . إن الرجل فى ذمة التاريخ . . وليس فى حاجة إلى إطرائه فضلا عن الغلو فيه ،

ثم إن ما عمله فى حياته القصيرة يشهد له بما يغنيه عن الإطراء والغلو ، بل يغنيه عن العواطف ، وأمامنا رجل ليس مسلماً وليس عربيا ولا مصرياً ، إنه الكاتب الأمريكى « روبير جاكسون » يقول فى كتابه « حسن البنا . . الرجل القرآنى » :

« لفت نظرى إلى هذا الرجل سمته البسيط ، ومظهره العادى ، وثقته التى لا حد لها بنفسه ، وإيمانه العجيب بفكرته . . كنت أتوقع أن يجيء اليوم الذى يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الشرق كله . . وسافرت من مصر بعد أن حصلت على تقارير وافية ضافية عن الرجل وتاريخه . وأهدافه وحياته . . وقد قرأتها جميعاً ، وأخذت أقارن بينه وبين جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد أحمد المهدى ، والسيد السنوسى ، ومحمد بن عبد الوهاب . فوصل بى البحث إلى أن الرجل قد أفاد من تجارب هؤلاء جميعاً . . وأخذ خير ما عندهم ، وأمكنه أن يتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء . . ومن أمثلة ذلك أنه جمع بين وسيلتين متعارضتين ، جرى على أحدهما الأفغانى ، وارتضى الأخرى محمد عبده . .

كان الأفغانى يرى الإصلاح عن طريق الحكم ، ويراه محمد عبده عن طريق التربية . . وقد استطاع حسن البنا أن يدمج الوسيلتين معاً ، وأن يأخذ بهما جميعاً ، كما أنه وصل إلى ما لم يصلا إليه ، وهو جمع

صفوة المثقفين من الطبقات والثقافات المختلفة إلى مذهب موحد ، وهدف محدد . . » .

هذا ما يقوله رجل أجنبي عن حسن البنا . . وليس مما نقول نحن . . وكل ما يمكن أن نعقب به ، هو أن فكرة الإخوان لم تقتصر على المثقفين ، بل استوعبت العامل البسيط والفلاح البسيط أيضا . ووجد كلاهما فى رحابها مجالا للثقافة الإسلامية الأصيلة . .

إن كلمات الكاتب الأمريكى « روبير جاكسون » تؤكد أن حسن البنا كان ذا عبقرية فذة ، وبصيرة نافذة ، فإذا أضفنا إلى هاتين الخصيصتين ، إيمانه وشجاعته وثقته فى ربه . . وجدنا أنفسنا أمام فلتة من فلتات التاريخ ، قل أن يجود الزمان بمثلها ..



شجاعة عليٍّ .. وحكمة معاوية

حدثنا الأخ الأستاذ محمد عبد الحميد من رجال التربية والتعلم ، ومن الدعاة الأوائل فى جماعة الإخوان ، قال :

« عندما التحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة . فكرت فى الانضمام إلى إحدى الجمعيات الدينية ، ورأيت أن أستشير عالما جليلا ، ومفكرا كبيرا ، وصديقاً لوالدى ، إنه الشيخ طنطاوى جوهرى . . فقال لى : عليك بالشيخ حسن البنا . . فإن فيه شجاعة على ، وحكمة معاوية » .

إن الشيخ طنطاوى جوهرى بفلسفته، قوم الرجل بكلمتين موجزتين سهلتين : الشجاعة والحكمة ، وكان موفقاً كل التوفيق فى تعبيره ، وحين ربط بين الشجاعة والحكمة ، فهما صفتان متلازمتان، وخصيصتان مترابطتان ، لا غنى لكلتيهما عن الأخرى ، وإلا فقدت أى منهما قيمتها . . فالشجاعة بلا حكمة مثلا . قد تتحول إلى طيش أو تهور لا تحمد عقباه ، والحكمة بلا شجاعة هى أيضا بلا وجود يذكر ، ولا يمكن أن تقوم لها قائمة ، ما لم تكن هناك شجاعة تدفع بها إلى الوجود . . إلى الحيــاة . .

وشجاعة حسن البنا ليست شجاعة جسدية . . مما تحتاج إلى سواعد مفتولة وعضلات قوية ، بل هى شجاعة من طراز آخر ، شجاعة مقوماتها : الإقدام ، والقدرة على إعلان الحق وتعرية الباطل ، ورفض المساومة على حساب المبدأ ، ورفض التراجع عن معنى من المعانى آمن به ، واطمأن قلبه إليه ، وشجاعة حسن البنا مكانها الطبيعى هو القلب ، والقلب هو محل الإيمان بالله ، والثقة فيه ، والاعتزاز به ، والاطمئنان إليه . .

وحكمة حسن البنا كذلك من طراز آخر .. ليست كحكمة الفلاسفة ، لأن حكمة الفلاسفة مصدرها العقل وحده . . فاذا نطق بها الفيلسوف انفصلت عنه ، وتركها لتلامذته ، يتأثرون بها ، وينشرونها ، وقد تعيش حكمة الفيلسوف آماداً طوالا . . يحفظها البعض عن ظهر قلب . . أما حكمة حسن البنا ، فليس مصدرها العقل وحده ، بل أيضا الإيمان والوجدان ، ولا يمكن أن تنفصل عنه . . لأنها ليست – فحسب – جزءاً من إيمانه وجدانه ، بل جزءاً من كيانه كله ، انها حكمة ليست للتأمل . . وليست مجرد كلمات تسحر الألباب ، وتجتذب الانتباه ، وإنما هى سلوك يطابق المنهج ، وخطة عمل لتطبيق المبدأ . . وفى إيجاز كانت حكمة حسن البنا حكمة تدب فيها الحركة والحيـــاة .

* * *

لسنا فى حاجة إلى ضرب الأمثلة عن المواقف التى تشهد بشجاعة حسن البنا الأدبية ، حسبنا أن نشير إلى أقل القليل من هذه المواقف . .

فى بداية الربع الثانى من هذا القرن .. بدأت فكرة الإخوان تشق طريقها إلى حياة الناس ، منشئها ومؤسسها ، ومفكرها ، وواضع حجر الأساس فى بنائها ، هو حسن البنا . . لكن كيف كانت ظروف مصر التى نبتت على أرضها فكرة الإخوان ؟ الاحتلال الانجليزى جاثم على صدر البلاد . . ومنطقة القنال التى بدأت منطلقاً لفكرة الإخوان يتمركز فى أرضها جنود الاحتلال ، أى أن القاعدة البريطانية ألقت بكل ثقلها فى منطقة الاسماعيلية ، وفى نفس مدينة الاسماعيلية نبتت الفكرة . . لكن من كان يحكم مصر على الحقيقة . . نحن لم ننس أنه كان فى مصر حكومة ينتمى أعضاؤها إلى مصر بحكم شهادات الميلاد . . وأنه كان فى مصر أحزاب سياسية تسعى إلى الحكم ، وتتزلف إلى السفارة البريطانية « الحاكم الحقيقى لمصر » كى تحظى بالقرب من كراسى الحكم . . أما الشعب المصرى ، فقد كانت الغالبية الساحقة منه ، تعيش فى سلبية مطلقة ، لا تدرى عن السياسة شيئاً ، ولا تباليها إن شرقت أو غربت . . أما القلة القليلة من الشعب فهى التى كانت تشتغل بالسياسة بمفهومها الحزبى وليس بمفهومها الوطنى ، لأن مصالحها ارتبطت بالأحزاب لا بالوطن . . .

ونحن لم ننس أن هذه الأحزاب السياسية كانت لعبة السفارة البريطانية . . ولعبة القصر أيضا . . بل كان القصر نفسه لعبة السياسة البريطانية فى مستوياتها العليا . . كذلك لم ننس أنه كان فى مصر المخابرات البريطانية . . وربيبها القلم السياسى ، يعد على الناس أنفاسهم ، فضلا عن حركاتهم وسكناتهم . .

وفى إيجاز يمكن أن نقول : إن الشعب المصرى كان يفتقد القيادة الصادقة وطنيتها . . فالحزب الوطنى – وهو يكاد يكون الحزب اليتيم المخلص لمصر – فقد ظله ، لقد ألزم نفسه بشعار مثالى لا يصلح لدنيا السياسة ، ولا سيما إذا كانت بريطانيا طرفا فيها . . هذا الشعار هو : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . . » وتماثل الحزب الوطنى للاندثار دون أن يتحقق شعاره الذى كانت الحكمة تنقصه . .

والأزهر . . هل كان فى حالة تؤهله لقيادة الشعب المصرى ؟ الأزهر أدى دوره المشرف فى الحملة الفرنسية على مصر ، وهذا دور يحسب له فى تاريخه . . ولم يظهر له وجود يذكر بعد ذلك إلا فى ثورة عام ١٩١٩ ، وهى ثورة – مهما قيل فيها – مرتجلة لعبت الغوغائية فيها دوراً رئيسياً ، والفرق بين الموقفين للأزهر ، هو أن الأزهر فى مواجهة الحملة الفرنسية كان مستقل الإرادة ، ودافعه العقيدة الدينية ، بينما كان موقفه فى ثورة عام ١٩١٩ ، بلا إرادة مستقلة له ،

حركته السياسة لا العقيدة ، بل إن الحزبية كان لها دور رئيسي في الحركة . . ولم يكن عجيبا في غوغائية هذه الثورة التي أسهم الاستعمار نفسه في التخطيط لها ، أن يعانق الصليب الهلال ، أو يعانق الهلال الصليب ، وأن يغني لهذه التقدمية شاعر القطرين خليل مطران :

الشيخ والقسيس قسيسان   وإن تشأ فقل هما شيخان

وليس الوضع في مصر أحسن حالا من الأوضاع في سائر بلاد المسلمين ، وليس مثلي أن يصور هذه الأوضاع في دقة كما صورها داعية إسلامي كبير ، ورحالة واسع الاطلاع والخبرة بأوضاع الإسلام والمسلمين . . إنه العلامة أبو الحسن الندوي ، ففي رسالته الموجزة : « أريد أن أتحدث إلى الإخوان » يقول :

« إن العالم الإسلامي حائر اليوم بين دين لا يسهل عليه العمل به والقيام بطالبه . . لعادات نشأ عليها ، وحكومات أفسدته ، وتعليم أزاغه ، وشهوات لا تتفق مع عقيدته ورسالته . . وبين جاهلية لا ينشرح لها صدره لإيمان لا تزال له بقية فيه ، وقومية عجنت مع الإسلام ، وحضارة تخمرت مع الدين . .

إن العالم الإسلامي حائر بين شعوب مسلمة بسيطة في عقليتها ودينها . . وحكومات داهية لم تنشرح صدور رجالها لهذا الدين ، ولم تطاوعهم

نفوسهم على العمل به . . ولكنهم يصرون على أن يحكموا هذه الشعوب التى تؤمن بهذا الدين . . ولا يرون حياتهم وشرفهم إلا فى البقاء فى الحكومة . . ولا يرون لهم محلا فى الحياة إلا الزعامة والحكومة . . . فالشعوب فى تعب منهم ، وهم منها فى بلاء وعناء . .

- إن العالم الإسلامى حائر بين فطرته التى تنزعه إلى الدين ، وتاريخه الذى يدفعه إلى الإيمان والجهاد . . والكتاب الذى يقبل به على الآخرة ، ويبعث فى نفسه الثورة على المجتمع الفاسد ، والحياة الزائفة . . وبين التربية العصرية التى تزين له المادية ، وتطبعه على الجبن والضعف ، والزعامة التى تفرض عليه الاتكال على الغير ، والاعتماد على العدو ، والفرار من الزحف . .

إن العالم الإسلامى حائر بين شباب ثائر ، ودم فائر ، وذهن متوقد وأزهار تريد أن تتفتح ، وبين قيادة شائخة شائبة ، قد أفلست فى العقلية والحياة، وحرمت الابتكار والإبداع . . والشجاعة والمغامرة . !

هذا ما قاله العلامة الندوى أواسط عام ١٣٧٠ هـ أى منذ أكثر من ربع قرن ، عن أوضاع العالم الإسلامى ، ولا يمكن لإنسان - كائنا من كان هذا الإنسان - أن يضطلع بأعباء فكرة جريئة تتصدى لكل هذه الأوضاع الغارقة إلى آذانها فى الجاهلية الأولى التى يجب أن يحسب ألف حساب لا لقدراتها المادية فحسب ، بل

أيضا لمساندة الاستعمار والأنظمة الوطنية لها ، لا سيما إذا كان يراد لهذه الفكرة أن تكون عالمية ، وليست محلية قاصرة على مصر . . وحتى لو قدر لها أن تكون محلية قاصرة على مصر ، فانها لابد أن تنعكس على العالم الإسلامى لمركز مصر ذى الأهمية الخاصة . ومصر فى ظروفها لم تكن أحسن حالا من مكة إبان ظهور الدعوة الإسلامية . .

لا جدال فى أن هذه الخواطر كلها وأكثر منها قد مرت بذهن حسن البنا ، درسها وتعمق فى دراستها ، وأجهد فكره وذهنه وتقصى كل ذرة من أبعادها . . ومع ذلك فقد أقدم على إبراز الفكرة إلى حيز الوجود . . وهذه هى الشجاعة الأدبية ومصدرها الإيمان . . ودافعها الاستعداد لكل تضحية . .

بعد مصرع النقراشى رئيس الحكومة ، كانت كل الدلائل تشير إلى أن هناك أموراً تدبر لحسن البنا . . سحبت منه رخصة مسدسه ، وانتزع منه المسدس . . ورفض للمرة الثانية طلبه إلى الحكومة باعتقاله . . وتركت له حرية التنقل بلا أدنى حراسة . . ولمحته ظهر أحد الأيام فى سيارة قريبا من « قصر العينى » وتقدمت إلى السيارة لأحييه . . ثم التقيت بشقيقه الضابط المرحوم عبد الباسط البنا فى أحد الاجتماعات التى كنا نعقدها بعيداً عن أعين الرقباء ، وسلمته وريقة صغيرة ليحملها إلى الإمام الشهيد ، قلت له فيها : نرجو الإقلال جهد الاستطاعة

من الحركة والتنقل . . ليست حياتكم ملكاً خاصاً بفضيلتكم . . »
وكان رده السريع آية من كتاب الله بلا تعليق : «أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة . . »

وكدت أخجل من نفسى . . فإيمان الرجل كان أكبر من التهديد بالموت ومن الموت ذاته ، إن القائد الذى يغرس فى قلوب جنوده مثل هذا المعنى : « الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » لا يمكن أن يخشى الموت بحال من الأحوال . . ! !



لم يكن فى مقدور أحد فى مصر أن يمس من قريب أو بعيد القصر . . فضلا عن الجالس على العرش . . لكن حسن البنا فى إحدى محاضرات الثلاثاء — وكان يتحدث عن العدل الاجتماعى ، قال بصوت جهورى خرق اسماع ذوى الجلابيب من أعين القلم السياسى : نريد أن نتساءل : كم تملك الأسرة المالكة فى مصر ؟؟ صراحة وشجاعة لم تكونا لتتوافرا إلا فى شخصية كشخصية حسن البنا .. وفى وقت كان زعماء مصر يتبارون فى التزلف إلى القصر وإلى الجالس على العرش .

كان الرجل واثقاً من ربه . واثقاً من إيمانه .. ثم واثقاً من نفسه .. فهو لا يطلب رزقا عند أحد ، ولا يسعى إلى جاه أو منصب لدى

ذى جاه أو صاحب سلطان . . كان فقيراً زاهداً ، لكن زهده لم ينشأ عن فاقة ، وإنما نشأ عن قناعة ، على الرغم من الظروف الصعبة التى كانت تصادفه . . وهذه هى الشجاعة فى أرفع مستوياتها . .

* * *

قلت : إن الشجاعة والحكمة شيئان متلازمان . . أو صنوان من أصل واحد ، فاذا كانت الشجاعة تعنى الشجاعة الأدبية : إقداما وثباتاً على المبدأ ، ومساندة للحق ، ومواجهة للباطل ، فان الحكمة هى ضوابط هذه الشجاعة ، هى بمثابة قياس الضغط الجوى . . كان معاوية – رضى الله عنه – يقول : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ،إن شدوها أرخيتها ، وإن أرخوها شددتها » وكان يقول : « إنى لا أضع سيفى حيث تصلح العصا . . . » وهذه هى الحكمة فى أجلى معانيها .

فى رجب عام ١٣٦٦ بعث الإمام الشهيد بخطاب مفتوح إلى ملك مصر ، ورئيس حكومتها مصطفى النحاس ، وإلى ملوك العالم الإسلامى ، وأمرائه وحكامه ورجالاته المبرزين من ذوى المكانة الدينية والدنيوية ، ونحن إذ نقتطف من هذا الخطاب المسهب عبارات سريعة . إنما

ليقف القارئ على بعض ما كانت تتمتـــع به شخصية حسن البنا من شجاعة وحكمة معاً :

« إن الله وكل إليكم أمر هذه الأمة . . وجعل مصالحها وشئونها ، وحاضرها ومستقبلها أمانة لديكم ، ووديعة عندكم . . وأنتم مسئولون عن ذلك كله بين يدى الله تبارك وتعالى . . ولئن كان الجيل الحاضر عدتكم ، فان الجيل الآتى من غرسكم . . وما أعظمها أمانة ، وأكبرها تبعة ، أن يسأل الرجل عن أمة : وكلكم راع . . وكلكم مسئول عن رعيته . . .

إنكم سترون أمامكم طريقين : كل منهما يهيب بكم أن توجهوا الأمة وجهته ، وتسلكوا بها سبيله . . فأما الأول فطريق « الإسلام » وأصوله وقواعده وحضارته ومدنيته . . وأما الطريق الثانى فطريق « الغرب » ومظاهر حياته ونظمها ومناهجها . . وعقيدتنا أن الطريق الأول ، طريق « الإسلام » وقواعده وأصوله هو الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلك ، وأن توجه إليه الأمة الحاضرة والمستقبلة . .

ها هو ذا الغرب يظلم ويجور . . ويطغى ويحار ويتخبط . . فلم يبق إلا أن تمتد يد « شرقية » قوية ، يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية القرآن ، ويمدها جند الإيمان القوى المتين ، فاذا بالدنيا

مسلمة هاتفة ، وإذا بالعوالم كلها هاتفة : الحمد لله الذى هدانا لهذا . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . .

ومن المبررات التى اتخذها بعض الذين سلكوا سبيل الغرب : أنهم أخذوا يشهرون برجال الدين المسلمين ، من حيث موقفهم المناوئ للنهضة الوطنية . . وتجنيهم على الوطنيين ، وممالأتهم للغاصبين . وإيثارهم المنافع الخاصة ، والمطامع الدنيوية على مصلحة البلد والأمة . وذلك – إن صح – فهو ضعف من رجال الدين أنفسهم ، لا فى الدين ذاته . . وهل يأمر الدين بهذا ؟ وهل تمليه سيرة الأجلاء والأفاضل من علماء الأمة الإسلامية ، الذين كانوا يقتحمون على الملوك والأمراء أبوابهم وسدودهم . . فيقرعونهم ويأمرونهم وينهونهم ويرفضون أعطياتهم . . بل ويحملون السلاح فى وجوه الجور والظلم » .

هذه مقتطفات سريعة . . والرسالة مطولة فيها برنامج إصلاحى ، على أسس إسلامية قويمة ، بعث بها الإمام الشهيد إلى المسئولين فى إباء وشجاعة . وبالرغم من ثقته أنه إنما يخاطب قلوباً غلفا ، وآذاناً صما ، إلا أن الحكمة اقتضت أن يبلغ . . وقد أعذر من أنذر . . !

• • •

مـــــؤذن..ومصبــــاح

من الخصائص التى تميز بها حسن البنا ، قدراته الخارقة على احتمال الجهد الشاق المضنى الذى كان يبذله ، كانت تعلو رأسه فى مكتبه المتواضع بالمركز العام ، لافتة صغيرة معلقة على الجدار تقول : « الأعمال أكبر من الأوقات » .. لعله كان يهدف من وضعها، لتكون فى مواجهة زائريه ، بمثابة لفت أنظارهم إلى ضرورة الإيجاز فى الوقت والقول معاً ، بطريقة مهذبة . . إلا أنه من المدهش حقاً أن يستطيع الرجل وحده ، أن يقوم بوظيفة المؤذن وفى يده مصباح ، وفى وقت واحد . . وربما تصور البعض أنه ليس فى هذا ما يثير الدهشة . إذ أن أبسط الناس يستطيع القيام بهذا العمل . . هذا المتصور يأخذ بأقرب مدلولات الألفاظ إلى الأذهان ، أو بمعنى آخر يأخذ بظواهر الألفاظ لا بجوهر معانيها . .

إن وظيفة المؤذن بالنسبة لرجل مثل حسن البنا ، لا تعنى إعلام الناس بأوقات الصلاة ، وإنما تعنى إيقاظهم من سباتهم الذى طال أمده ، ليلتفوا حول الداعية الذى يدعوهم إلى الخير ، ولم يكن اختيار الرجل لألفاظ الهتاف الذى يحسن أن يردده الإخوان ، عرضا ،

بل بناء على تفكير وتأمل . . لقد اختارت الأحزاب السياسية المحترفة للتهريج ، التصفيق والهتاف للزعماء ، وهى بذلك قد ارتدت إلى عصور الجاهلية . . لكن حسن البنا استبدل عادة الجاهلية بكلمات من القلب يهتز لها الوجدان ، فيها ذكر الله ، وليس فيها ذكر زعيم ولا غير زعيم من الناس . . واختيار حسن البنا لعبارة « الله أكبر » ليبدأ بها هتافات الإخوان كان له مغزاه فى نفسه ، ومغزاه لدى الأتباع أيضا ، بالنسبة له ، فهو يؤدى وظيفة المؤذن . . والمؤذن إنما يبدأ الآذان الشرعى بعبارة « الله أكبر » وبالنسبة للأتباع ، فانهم حين يبدأون الهتاف باسم الله تعالى ، لن يجدوا فى أنفسهم استعدادا للهتاف باسم واحد من البشر . .

قلت : إن وظيفة المؤذن كانت تعنى بالنسبة للرجل إيقاظ الناس من سبات طال أمده ، وهنا تبدو المهمة الشاقة . . فان إيقاظ قوم نيام ، استعذبوا النوم ، واسترخوا له ، عمل يحتاج إلى مؤهلات خاصة قد لا تتوافر فى كثير من الدعاة . . الصبر والمصابرة . الاحتمال والتحمل ، المرونة وسعة الأفق ، الحكمة والسياسة . . الدراسة المتأنية للظروف ، حسن اختيار الزمان والمكان المناسبين . . القدرة على كسب القلوب والعقول معاً . . إن كسب القلوب وحدها — هو

مجال التصوف ، وكسب العقول وحدها ـ هو مجال الفلسفة ـ والفكرة الإسلامية ، أكبر من المجالين . .

* * *

إذن . . فمهمة الإيقاظ مهمة شاقة . وما بعدها أشق منها . . فالمستسلمون لسبات عميق ، أكثر استسلاماً للواقع ، إذا هم استيقظوا . . إن فكرة رفض الواقع المرير لا تخطر ببال أحد منهم . . وإن التفكير فى التغيير أمر لا تقبله عقولهم ، ولا تستقبله أذهانهم . « لأن فلسفتهم التى اقتنعوا بها هى : ليس فى الإمكان أبدع مما كان . . . لقد أقنعهم سلوك الزعماء السياسيين ، بالاطمئنان إلى الحاضر ، واليأس من المستقبل. مع أن الحاضر مزيج من الهوان والضياع . .

وقبل أن يبدأ حسن البنا مهمته ـ مارس ١٩٢٨ ـ كمؤذن بين الناس ـ وقد عرفنا أوضاعهم ـ لم يغب عن ذهنه ثقل المهمة ، ومع ذلك أقدم ومعه فى يده مصباحه ، وفى داخله إيمانه بالله ، وثقته المطلقة به ، كان الإيمان والثقة مصدرا لعزيمة صادقة لا تقبل التردد وترفض اليأس . .

كان التفكير أن تبدأ المهمة ـ مهمة الدعوة إلى الله ـ من المسجد ، لكن حسن البنا ، رأى أن المساجد وحدها لا تكفى لإيصال تعاليم

الإسلام إلى الناس . . لمـــاذا لا يتجه إلى رجل الشارع ، فليس الإسلام قاصرا على رواد المساجد دون رجل الشارع . . . كان مثار دهشة حين اقترح حسن البنا أن تبلغ الدعوة إلى رواد المقاهى ، قيل : ان أصحاب المقاهى من جهة – لا يسمحون بذلك ويعارضون فيه لأنه يعطل أشغالهم ، ومن جهة أخرى – فان جمهور الجالسين على المقاهى قوم منصرفون إلى ما هم فيه . . وليس أثقل على نفوسهم من الوعظ . . فكيف نتحدث فى الدين والأخلاق لقوم لا يفكرون إلا فى هذا اللهو الذى انصرفوا إليه ؟

يقول الإمام الشهيد فى « مذكرات الدعوة والداعية » :

« وكنت أخالفهم فى هذه النظرة . . وأعتقد أن هذا الجمهور أكثر استعدادا لسماع العظات من أى جمهور آخر حتى جمهور المسجد نفسه . . لأن هذا شىء طريف وجديد عليه ، والعبرة بحسن اختيار الموضوع ، فلا نتعرض لمـــا يجرح شعورهم ، وبطريقة العرض ، فنعرض بأسلوب شائق جذاب ، وبالوقت ، فلا نطيل عليهم القول . . »

وكان أن نجحت التجربة . . وكان لابد أن تنجح . .

شىء طبيعى أن الداعى حين يؤذن فى الناس وينتبهون له ، لابد أن يتساءلوا : ماذا يريد ؟ إلا أن حسن البنا كان أذكى من أن يمكنهم

من هذا التساؤل . وكان هو البادئ : ماذا نريد ، وفرق بين أن ينتظر الداعى حتى يسأل ، وبين أن يتولى هو عرض السؤال ثم الإجابة عنه . . لا أقل من توفير الوقت ، والحيلولة دون أن تتشعب التساؤلات . .

رافقت الإمام الشهيد فى رحلة بالصعيد . . واستمعت إليه فى عدة محاضرات . . فما رأيته كرر كلاماً بلفظه ، كان يتصرف فى التعبير ولا يتصرف فى المعانى . . يصوغ الشكل فى القالب المناسب . مع المحافظة التامة على الجوهر . . كان يستمع إليه — فى وقت واحد — المثقف ثقافة عالية ، والمثقف ثقافة متوسطة . . والعامل ، والصانع ، والفلاح ، والمتحضر ، والريفى . . وكانت له قدرة عجيبة على أن يبلغ كلامه هؤلاء جميعاً . . ويصل إلى عقولهم وقلوبهم جميعاً . .

وهبطنا إلى بلدة « مشطا » مسقط رأس الاستاذ مختار عبد العليم المحامى بالإسكندرية . . وكان لابد أن يحاضر فى فلاحى هذه القرية الكبيرة ، الذين سمعوا بالرجل ولم يروه . . وهرعوا من حقولهم وأكواخهم ، والرغبة فى مشاهدة الرجل أكبر من الرغبة فى الاستماع إليه . . وسرحت لحظات أفكر : ماذا يقول الرجل لهؤلاء الناس ؟ إنهم بسطاء تعودوا — فى سهرات رمضان — أن يصغوا إلى حامل الربابة يقص عليهم قصص سيف بن ذى يزن ، وأبى زيد الهلالى ، والزناتى خليفة ، وسرعان ما زالت حيرتى ، استطاع الرجل أن يسيطر

بأسلوبه الشيق ، وكلماته الجذابة البسيطة على مسامع القوم . . ضرب لهم الأمثلة لفكرته من واقع بيئتهم وأعمالهم . . وأصغوا إليه إصغاءهم لقصص الأبطال والفاتحين . . .

• • •

كانت مهمة حسن البنا تختلف عن مهمة الواعظ أو المصلح . . فالواعظ يستطيع أن يوقظ النيام ، والمصلح يستطيع أن يرسم الطريق ، لكن مهمة حسن البنا – وإن كانت تجمع بين الاثنتين ، مهمة الواعظ ومهمة المصلح – إلا أن لها شأنا آخر ، هو عملية البناء ذاتها ، لقد اضطلع الأفغانى بمهمة الواعظ الذى يوقظ الشعوب . ولقد اضطلع الإمام محمد عبده وغيره بمهمة المصلح الذى يرسم الطريق ، والحق أن الجميع قد أدوا رسالة لا يمكن أن يتجاهلها التاريخ . . لكنهم لم تسمح ظروفهم بأن يقيموا بناء كالذى أقامه حسن البنا : صنع لبناته بنفسه ، وقام بدور المقاول والمهندس وصانع الأثاث . . ربى جيلا من الناس غير متجانس ، تتفاوت ثقافاته ، وتتفاوت معارفه ، ولكنه استطاع أن يوحد بين هذا الجيل غير المتجانس فى الفكر والتفكير والعزائم والقدرات ، أرسى فيه أولا قواعد الفكر الإسلامى النظرى ، ثم هيأه للانتقال إلى مرحلة دوره العملى والتطبيقى . .

كان للمصباح الذى حمله حسن البنا مهمته ، إرسال الأشعة إلى

العقول لتضيء ، وإلى البصائر لتنتج . . . وإلى القلوب لتستجيب ، وكان أن قامت رابطة بين الداعى الرائد ، وبين الأتباع المريدين ، أساسها العقل والبصيرة والقلب ، وحدة فى الفكر والنظر والشعور ، ثم الثقة المتبادلة ، والرأى المتبادل أيضا . . ولم يكن من أسس هذه الرابطة أو الوحدة ، القداسة التى يضفيها المريدون على شيخهم فى الطريق ، أو الطاعة العمياء التى تتطوع بها الأحزاب السياسة لزعمائها . بل إن حسن البنا كان حتى آخر لحظة يعتبر نفسه مريدا ، والفكرة هى الرائد ، وجنديا والفكرة هى القائد . . وبذلك كسب قلوب الجميع ، واكتسب الجميع قلبه . .

والذين يحلو لهم أحيانا أن يلقوا على الرجل ظلا من القداسة ، أو بمعنى أصح – ظلا من التقديس ، لما كان أتباعه يحوطونه بالإجلال والتقدير . . هؤلاء يتجاهلون قيمة الرجل فى الزهد والتواضع وإنكار الذات . .

أذكر أننى كنت معه فى إحدى الرحلات ، وفى مدينة طها بالصعيد ، كان السرادق يغص بأعيان البلد ، ورجال الأحزاب ، لم يكن فى البرنامج أن أتكلم ، ولكنى فوجئت به عندما قدم للحديث ، يأخذ بيدى إلى المنصة ، وكان مما قلته : إننا آمنا بدعوة الإخوان ، وإيماننا بها مرتبط بالمبادئ وليس بالأشخاص . . ولقد حببنا فى هذه الدعوة

أننا لا نسمع هتافا باسم شخص . كما يفعل أتباع الأحزاب السياسية ، لأننا نعتقد أن هذه الدعوة ليست دعوة . . حسن البنا . . وإنما هى دعوة الله فى السماء ، ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى الأرض . . وما أن انتهيت حتى وقف الرجل يربت على كتفى ، ويقول : بارك الله فيك يا فلان . .

وبعد انتهاء الحفلة ، تنازع الأعيان كل يريد أن يستضيف الرجل فى داره ، ولكنه اعتذر للجميع ، ووقف بنفسه يوزع الضيوف على منازل الإخوان . . أما هو فقد اختار الزاوية . ليقرأ ورده من كتاب الله عز وجل . . وأصر على ذلك ، ورفض أى فراش يؤتى به إلى المصلى ، وكان صيفاً . . نام على الحصير وتوسد عباءته . . !



الفكرة تحت المجهر

- الفكرة نحو بعث جـديد
- المبادئ فى صياغة جديدة
- بـين النظر.. والتطبيـق



الفكرة نحو بعث جديد

جاء فى رسالة المؤتمر الخامس « للإخوان المسلمون » تحت عنوان « إسلام الإخوان » :

« واسمحوا لى . . أن استخدم هذا التعبير — ولست أعنى به أن للإخوان المسلمين إسلاما جديداً غير الإسلام الذى جاء به محمد — صلوات الله عليه — عن ربه ، وإنما أعنى أن كثيرا من المسلمين فى كثير من العصور ، خلعوا على الإسلام نعوتاً وأوصافاً ، وحدوداً ورسوماً ، من عند أنفسهم ، واستخدموا مرونته وسعته استخداما ضارا — مع أنها لم تكن إلا للحكمة السامية — فاختلفوا فى معنى الإسلام اختلافاً عظيماً ، وانطبعت للإسلام فى نفوس أبنائه صور عدة ، تقرب أو تبعد ، أو تنطبق على الإسلام الأول الذى مثله رسول الله — صلوات الله عليه — وأصحابه خير تمثيل . .

هذه الصور المتعددة للإسلام الواحد فى نفوس الناس . جعلتهم يختلفون اختلافاً بيناً فى فهم الإخوان المسلمين وتصور فكرتهم ، فمن الناس من يتصور الإخوان المسلمين جماعة وعظية إرشادية .

كل همها أن تقدم للناس العظات ، فتزهدهم فى الدنيا وتذكرهم بالآخرة ، ومنهم من يتصور الإخوان المسلمين طريقة صوفية ، تعنى بتعليم الناس ضروب الذكر ، وفنون العبادة ، وما يتبع ذلك من تجرد وزهادة ، ومنهم من يظنهم جماعة نظرية فقهية ، كل همها أن تقف عند طائفة من الأحكام ، تجادل فيها ، وتناضل عنها ، وتحمل الناس عليها . . . وقليل من الناس خالطوا الإخوان المسلمين وامتزجوا بهم ، ولم يقفوا عند حدود السماع ، ولم يخلعوا على الإخوان إسلاما يتصورونه هم ، فعرفوا حقيقتهم ، وأدركوا كل شىء عن دعوتهم علما وعملا ..»

وكان أن لخص الإمام الشهيد معنى الإسلام ، وصورته الماثلة فى نفوس الإخوان ، حتى يكون الأساس الذى يدعون إليه ، ويعتزون بالانتساب له ، والاستمداد منه ، واضحا جليا :

أولا : إن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة ، تنتظم شئون الناس فى الدنيا والآخرة . .

ثانياً : إن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها ، هو كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله — صلوات الله وسلامه عليه . .

ثالثاً : إن الإسلام — كدين عام — انتظم كل شئون الحياة فى كل الشعوب والأمم . لكل العصور والأزمان . .

إذن فالإخوان المسلمون لم يأتوا بإسلام جديد . . وإنما اعتبر ما جاءوا به جديداً فى نظر البعض ، لأنهم لم يسمعوا عنه من قبل . . ولقد رسخ فى أذهانهم أن الإسلام كل الإسلام يتركز فى العبادة ، والسلوك الذاتى ليس أكثر . . الفكر الإسلامى الأصيل قد توقف مدة منذ بضعة قرون . . حتى أسدل عليه الستار منذ بداية عهد الاستعمار الأجنبى . . ومع أن الإسلام هو الإسلام ، منذ طلوع شمسه ، وسيظل هو هو حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . إلا أن المسلمين هم الذين لديهم القابلية للتغيير والتبديل ، والجمود والتطور ، والسلب والإيجاب والتردد والإقدام . . لذلك لم يكن مثيراً للدهشة أن يستقبل البعض دعوة الإخوان بكثير من الغرابة . .

الإسلام : دين ودولة ، ومصحف وسيف .. كلمات غريبة على الأذهان والأسماع معاً ، لقد تعود الناس أن يسمعوا أو يقرأوا أن الإسلام دين فحسب ، وهذا لا يعنى — على الإطلاق — أن بقية المبادئ لا تمت إلى الإسلام بصلة ، وأنها من ابتكار الإخوان المسلمين . فهذه المبادئ الأربعة تشكل الفكرة الإسلامية الأصيلة ، وكان دور الإخوان هو بعث الحياة من جديد فيها ، وإزالة الغشاوة عن أعين المسلمين . تلك الغشاوة التى ظلت قابعة أمداً طويلا . . وكانت محاولة البعث وإزالة الغشاوة ، مبعث إثارة . لدى الاستعمار وأدواته

وهما معاً أرباب المصلحة فى أن يظل الفكر الإسلامى الأصيل بمعزل عن الحياة . . عن حياة الشعوب المسلمة . .

لقد فزع المستعمر ، وفزعت معه أدواته : الزعماء المتربعون على كراسى الحكم . . والزعماء الذين ينتظرون دورهم ليتربعوا على كراسى الحكم ، لأنهم جميعاً اعتبروا أن فكرة الإخوان تخفى من ورائها انقلاباً يقلب الحياة رأسا على عقب . . والحق أن لهذا الفزع ما يبرره ، فالإسلام الذى يدعو إليه الإخوان هو الإسلام الذى رضيه الله لعباده دينا ، وهذا الإسلام يرفض الاستعمار شكلا وموضوعا ، ليس هذا – فحسب – بل يعتبر جهاده فرض عين لا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين . . وهذا الإسلام نفسه ، يرفض الحكم الجاهلى شكلا وموضوعا أيضا ، لا لأنه تخلى – فحسب – عن شريعة الله عز وجل ، بل لأنه أيضا يقف عقبة كأداء فى طريق الإسلام ، هى بمثابة صد عن سبيل الله ، وجهاد هذا الحكم الجاهلى باللسان والقلم ، فرض كفاية ، إذا لم يقم به البعض أثم المسلمون جميعاً . .

• • •

لقد تراءى للمرجفين من الاستعمار وأعوانه أن حركة الإخوان إنما تهدف إلى إحداث انقلاب ضد الأنظمة الحاكمة ، كذلك انساق البعض وراء إرجاف الاستعمار وأعوانه ، ونسى هؤلاء

أن فكرة الأخوان تهدف أول ما تهدف إلى تصحيح مفاهيم الإسلام لدى المسلمين التى تعرضت للكثير من الضباب لأسباب عديدة ، وعوامل شتى ، أقربها إلى الأذهان عامل الاستعمار ، وفقدان الدعاة الإسلاميين الفقهاء والخلصاء معاً .

يقول العالم الرحالة السيد أبو الحسن الندوى فى رسالته « أريد أن أتحدث إلى الإخوان » :

« إن العالم الإسلامى حائر بين مواد خام من أقوى المواد وأفضلها فى الإيمان والقوة والشجاعة ، وبين موجهين وصناعين لا يعرفون قيمة هذه المواد ، ولا يعرفون أين يضعونها ،وماذا يصنعون منها . . »

إذن فقد كان الإخوان هم الصناع والخبراء المهرة الذين عرفوا قيمة هذه المادة الخام ، وعرفوا كيف يصنعونها ، وماذا يصنعون فيها ، وقد جاءوا فى وقت حرج ، بلغ فيه السيل الزبى ، يواجه العالم الإسلامى فيه عالمـــاً لا يجد فيه غناءه، ولا يجد فيه غوثا ومعقلا عن لصوص العالم المنظمين ، أضعف أعضاء جسم العالم الإسلامى ، وقد كان واجبا أن يكون أقواها وأصحها ، وأن يكون فى العالم الإسلامى بمنزلة الرأس أو القلب فى البدن ، وقد تضافرت عليه عوامل الإفساد والضعف ، فأحدثت فيه عللا كثيرة أورثته سقوط الهمة والجهل المطبق ، وجاء الاستعمار الأوربى فأورثه التفسخ فى الأخلاق .

والانحلال فى الدين ، وقامت الحكومات الشخصية فأورثته التملق والنفاق والخنوع للقوة والمـــادة . . ثم كان أن خفت فى العالم العربى صوت الدعوة الدينية ، وانقرض الرجال الذين كانوا يكافحون المادية ويكبحون جماحها ، واستسلم العلماء ورجال الدين أمام تيار الغرب . . فوضعوا أوزارهم للمدنية الغربية . . حتى أصبح هذا العالم منحلا منهاراً متداعياً ، لا يمسكه الإيمان ، ولا تحفظه القوة المعنوية ، ولا تقف فى طريق اندفاعه دعوة قوية . . ! !

لذلك وأمام هذا كله ، كان لابد أن توجد الدعوة الإسلامية القوية ، والدعاة الأقوياء ، وأن يكون داعيها الأول من طراز فريد ، يتوافر فى شخصه عبقرية فذة ، وبصيرة نافذة ، وشجاعة على ، وحكمة معاوية ، وجرأة أبى ذر ، وذكاء إياس ، وزهد عمر بن عبد العزيز ، خامس الخلفاء الراشدين . .

المبادئ فى صياغة جديدة

كتب المفكر الفرنسى « أرنست رينان » أستاذ الدراسات العربية والإسلامية ، بالسوربون — باريس ، وهو حفيد الكاتب الفرنسى الكبير الذى دخل معه الأستاذ الإمام محمد عبده فى حوار نشرته الصحف ، وسجل فى كتاب ، حول بعض المعانى الإسلامية . كتب تعليقا على عقيدة الإخوان المسلمين يقول :

« إن هذه الكلمات عميقة البحث والقصد . وهى لا شك مستمدة من نفس المنهج الذى رسمه محمد — صلوات الله عليه — ونجح فى تنفيذه . فأسس به أمة ودولة ودينا ، وقد زيد فيها ، بما يناسب روح العصر مع التقيد بروح الإسلام . . وفى عقيدتى : أنه لا نجاح للمسلمين اليوم إلا باتباع نفس السبيل التى سلكها محمد وصحبه ؛ غير أن تحقيق هذا على الحال التى عليها المسلمون بعيد . . وليس معنى هذا ، القنوط والقعود عن العمل » .

ويعلق الإمام الشهيد حسن البنا على كلمة المفكر الفرنسى :

أعرب الأستاذ عن رأيه فى « عقيدتنا » بجلاء ووضوح . وقد كان

صريحاً فى إبداء رأيه بقدر ما كان موفقاً فى هذه الدقة أيضا ، ويمكنك أن تخرج من هذا الرأى الدقيق الذى ألقى من وراء البحار فى عقيدة الإخوان المسلمين بعدة نقاط :

أولا : عقيدة الإخوان المسلمين مستمدة من نفس المنهج الذى وضعه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هذا هو التعبير الفرنسى الذى استطاع الأستاذ الذى لا يتصل بالإسلام إلا بصلة العلم أن يعرب به عن رأيه . . ومعنى هذا ، أن الاستاذ « أرنست رينان » يرى أن عقيدة الإخوان المسلمين إسلامية بحتة ، لم تخرج عن الإسلام قيد شعرة . لقد استطاع بدقة بحثه ، وصفاء فكرته ، أن يصور الإخوان المسلمين ، وأن يفهمهم ، ويفهم أنهم للإسلام .. وللإسلام وحده . على بعد الشقة وانقطاع الصلة فيما بيننا وبينه . . على حين يظن بعض الناس الظنون بالإخوان المسلمين ، ويتساءلون عن ماهية مناهجهم ، وكنه مقاصدهم ، ويتشككون فى عقيدتهم ومسالكهم . .

ثانياً : هذا المنهج قد استطاع به محمد ـ صلوات الله عليه ـ أن يكون ديناً وأمة ودولة . . والعبرة فى هذا ، أن يسمع زعماء الشعوب الشرقية ، الذين أرادوا ، أو يريدون أن يتلمسوا

لأممهم منهجا أوفى من الإسلام ، ليشيدوا عليه النهضة ، ويكونوا به الدين والأمة والدولة . .

ثالثاً : لا نجاح للمسلمين اليوم إلا باتباع نفس السبيل التى سلكها محمد — صلوات الله عليه — وصحبه ، ذلك رأى الفيلسوف — رينان — وهو ما سبقه به ذلك الإمام الإسلامى الكبير الذى قال من قبل : « إنه لا يصلح آخر هذه الأمة ، إلا بما صلح به أولها » وقد أيدت ذلك التجارب ، وأكدته الحوادث .

رابعاً : تحقيق هذا المنهج على الحالة التى عليها المسلمون اليوم ، يراه الفيلسوف الفرنسى بعيداً ، لأنه يعلم الهوة السحيقة التى أوجدتها الحوادث السياسية والاجتماعية بين المسلمين ودينهم . ويعلم الوسائل الذاتية الفعالة التى استخدمها خصوم الإسلام فى إبعاد المسلمين عن الإسلام فى العصر الحديث ، ويعلم بأن المسلمين أنفسهم صاروا الآن حرباً على دينهم ، يكسرون سيفهم بيدهم ، ويسلمون المدية لمن يريد أن يذبحهم بها باختيارهم ، ويتصدعون بالهدم مع من يهدمون دينهم ، وهو معقد أنظمتهم ، وأساس دينهم . .

خامساً : ليس معنى هذا القعود عن العمل « أجل . . أجل » فلن تزيدنا العقبات إلا همة ، ولن تزيدنا المصاعب إلا مضياً فى سبيل الجهاد ، ونحن نقرأ قوله تعالى : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

أردت بهذه المقدمة السريعة ، أن أوضح أن مبادئ الإسلام هى ذاتها مبادئ الإخوان المسلمين ، ولكن فى صياغة جديدة ، وأن منهج الإسلام ، هو نفسه منهج الإخوان المسلمين . ولكن فى تطوير يناسب روح العصر . . فالإسلام – كما يقول الإمام الشهيد : تنتظم روحه العصور أجمع ، وتشمل الدنيا وما فيها . . وهكذا الإخوان المسلمون . . قد استطاعوا أن يستمدوا من روح الإسلام ما يوافق روح العصر ، ويصور عقيدتهم للناس كاملة ، يبدو فيها الروحان جميعا . . ولكم نتمنى أن يكون فينا من ينظر إلى عقيدتنا ، تلك النظرة الفاحصة – يعنى نظرة المفكر الفرنسى – ليخرج بعدها بمثل هذا الحكم السديد . .

ماذا يريد الإخوان المسلمون ؟ :

لقد قالوها صريحة دون أدنى مواربة أو التواء :

نريد تحقيق مطالب القرآن . . !

ومطالب القرآن فى إيجاز : أن يصبح الإسلام — كما أراده الله : ديناً ودولة ، ومصحفاً وسيفاً . . !

هل يرفض مسلم مثل هذه المطالب ؟

يقول الإمام الشهيد :

« إننا لا نرى مسوغاً للتشكك فى الإخوان المسلمين بعد وضوح أمرهم ، ونصاعة عقيدتهم ، إلا أمرين لا ثالث لهما :

إما أن هذا المتشكك لم يدرس الإسلام دراسة صحيحة . تمكنه من تشرب روحه ، وإدراك مراميه ومقاصده ، فهو يرى فى مقاصد الإخوان ما يخرج من روح الإسلام ، لأنه لم يعرف من هذا الروح إلا دائرة ضيقة ، لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وإما أن يكون هذا المتشكك مريض القلب ، سيء الظن ، غير سليم القلب ، فهو يطغى ، ويتجنى ، ويتلمس للبرآء العيب . .

وكلا الأمرين وبال على صاحبه ، وهلاك للمتصف به . . ! !

إلى أى شيء ندعو الناس ؟

إنما ندعوهم إلى الإيمان أولا وبالعمل ثانياً . .

الإيمان بأن الإسلام وضع للعالم النظم التى تكفل له الانتفاع بما فيها من محاسن ، وتجنب ما تستتبعه من خطر وويلات .

والعمل على أن تكون قواعد الإسلام هى الأصول التى نبنى عليها نهضة الشرق الحديث فى كل شأن من شئون الحياة .

والإخوان المسلمون – كما يقول الإمام الشهيد – لا يختصون بهذه الدعوة قطراً دون قطر من الأقطار الإسلامية ، ولكنهم يرسلونها صيحة ، يرجون لها أن تصل إلى آذان القادة والزعماء فى كل قطر يدين أبناؤه بدين الإسلام . .

إذن . . نحن ندعو الناس إلى مبدأ . . مبدأ واضح محدود مسلم به منهم جميعاً . . هم جميعاً يعرفونه ويؤمنون به ، ويدينون بأحقيته ، ويعلمون أن فيه خلاصهم وإسعادهم وراحتهم . . مبدأ أثبتت التجربة وحكم التاريخ صلاحيته للخلود ، وأهليته لإصلاح الوجود . .

والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا فى الإيمان بهذا المبدأ :

إنه عندهم إيمان مخدر . . نائم فى نفوسهم . . لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ، ولا أن يعملوا بمقتضاه . .

على حين أنه إيمان ملتهب مشتعل ، قوى يقظ فى نفوس الإخوان المسلمين . . إنها ظاهرة نفسية عجيبة – كما يقول الإمام الشهيد – نلمسها ويلمسها غيرنا فى نفوسنا – نحن الشرقيين – أن نؤمن بالفكرة إيمانا ، يخيل للناس – حين نتحدث إليهم عنها ، أنها ستحملنا على نسف الجبال ، وبذل النفس والمال ، واحتمال المصاعب ، ومقارعة

الخطوب حتى ننتصر بها أوتنتصر بنا . . حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع نسى كل إيمانه ، وغفل عن فكرته . . فهو لا يفكر فى العمل لها ، ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد فى سبيلها . . بل إنه يبالغ فى هذه الغفلة ، وهذا النسيان حتى يعمل على ضدها ، وهو يشعر أو لا يشعر . . ألست تضحك عجبا حين ترى رجلا من رجال الفكر والعمل والثقافة فى ساعتين اثنتين متجاورتين ، من ساعات النهار ، ملحداً مع الملحدين ، وعابداً مع العابدين . . ؟ هذا الخور أو النسيان ، أو الغفلة أو النوم ، أو قل فيه ما شئت . هو الذى جعلنا نحاول أن نوقظ مبدأنا . . وهو هو المبدأ المسلم به من قومنا فى نفوس هؤلاء القوم المحبوبين . . .



لكن ما هى الوسائل ؟ :

لقد حددها الإمام الشهيد بثلاث :

أولا : المنهاج الصحيح : وقد وجده الإخوان فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأحكام الإسلام حين يفهمها المسلمون على وجهها غضة نقية ، بعيدة عن الدخائل والمفتريات . فعكفوا على دراسة الإسلام — على هذا الأساس — دراسة سهلة واسعة مستوعبة . .

ثانياً : العاملون المؤمنون : ولهذا أخذ الإخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دين الله تطبيقا لا هوادة فيه ولا لين . . وهم بحمد الله مؤمنون بفكرتهم ، مطمئنون إلى غايتهم ، واثقون بتأييد الله إياهم ، ماداموا له ، وعلى هدى رسول الله يسيرون .

ثالثاً : القيادة الحازمة الموثوق بها . . وقد وجدها الإخوان المسلمون كذلك . . فهم لها مطيعون ، وتحت لوائها يعملون . . !

* * *

بين النظر.. والتطبيق

ظل الإخوان المسلمون عشر سنين يتكلمون . . يعرضون الإسلام مبادئ وافكاراً ، وعقيدة ونظاماً . . يناقشون من حسنت نياتهم فى هدوء ، ويجادلون بالتى هى أحسن ، من فى قلوبهم دخن ، وفى ضمائرهم دخل . . لا يغالون على أحد ، ولا يستخفون بأحد ، ولا يسخرون من أحد . . ويفسحون صدورهم للجميع ، ويفتحون عقولهم للمعارض قبل المؤيد ، وللمعادى قبل المسالم . .

والحق أن الإخوان لم يقطعوا السنوات العشر فى الكلام . . مجرد الكلام . . بل كان للعمل دور وإن كان متواضعا ، ويمكن أن تعتبر هذه المرحلة بمثابة التجهيز الذى يسبق التأسيس ، أو الإعداد الذى يسبق التنفيذ . .

كان الإمام الشهيد حسن البنا يقول : نحن نريد تحقيق مطالب القرآن . . ومطالب القرآن ذات هدفين : هدف قريب ، وهدف بعيد لكنه غير محال ، كان يضرب المثل من عمل الفلاح ، الذى يزرع زرعاً ينتج ثمراً فى أيام قلائل ، كأنواع الخضروات ، ويزرع زرعاً

آخر لا ينتج إلا بعد شهور كالقطن مثلا . . وهكذا الإخوان فى فى استطاعتهم أن يحققوا ثمراً قريباً ، ينضوى تحت أعمال البر ، نشر المبادئ ، تربية الشباب ، إنشاء المؤسسات ذات الخدمات الاجتماعية والإنسانية ، أما الثمرة البعيدة والرئيسية . . فقد لا تتحقق على أيدى هذا الجيل أو الجيل الذى يليه ، والمهم أن نبدأ البناء ونواصل حتى يكتمل .. كان الإمام الشهيد يعنى بالثمرة الرئيسية : أن يصبح الإسلام نظام حياة بأسرها ، فى مجال التشريع ، وفى مجال الحكم ، وفى مجال السياسة المحلية والدولية على السواء . .

أطلق الإمام الشهيد على المرحلة الأولى ، مرحلة الدعوة العامة ، كما أطلق على المرحلة التى تليها ، الدعوة الخاصة ، وقد كتب مقالة فى هذا الصدد، تحت عنوان : « أيها الإخوان تجهزوا » نشرت بالعدد الأول من جريدة النذير ، جاء فيها :

« الإسلام : عبادة وقيادة ، دين ودولة ، روحانية وعمل ، صلاة وجهاد ، طاعة وحكم ، مصحف وسيف . . لا ينفك واحد من هذين عن الآخر . . وكانت مصر يوم أن نبتت هذه الدعوة المحددة لا تملك من أمر نفسها قليلا ولا كثيرا . . ولم يخل الجو من منازعات حزبية ، وحزازات سياسية ، تذكيها مآرب شخصية . . ولم يشأ الإخوان المسلمون أن يزجوا بأنفسهم فى هذه الميادين ، فيلوثوا

دعوتهم وهى فى مهدها ، بلون غير لونها ، ويظهروها فى صورة غير صورتها . . فتقلبت الحكومات ، وتغيرت الدولات . . والإخوان يجاهدون مع المجاهدين ، ويعملون مع العاملين . . منصرفين إلى ميدان مثمر منتج ، هو ميدان تربية الأمة ، وتنبيه الشعب ، وتغيير العرف العام . . وإذاعة مبادئ الحق والجهاد ، والعمل والفضيلة بين الناس . . .

« هذه مرحلة من مراحل الإخوان التى اجتزناها بسلام ، وفق الخطة الموضوعة لها ، وطبق التصميم الذى رسمه توفيق الله.. والآن أيها الإخوان — وقد حان وقت العمل ، وآن أوان الجد ، ولم يعد هناك مجال للإبطاء . . فان الخطط توضع ، والمناهج تطبق . . وكلها لا يؤدى إلى غاية ، ولا ينتج ثمرة ، والزعماء حائرون ، والقادة مذبذبون متأرجحون . .

ولكن ما هى الخطوة الثانية فى إيضاح ؟

يقول الإمام الشهيد : هى الانتقال من خير دعوة العامة ، إلى خير دعوة الخاصة ، من دعوة الكلام وحده ، إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال . . والتوجه بالدعوة إلى المسئولين ، من قادة البلد وزعمائه . . سندعوهم إلى مناهجنا ، ونضع بين أيديهم برنامجنا ، وسنطالبهم بأن يسيروا بهذا البلد المسلم — بل زعيم الأقطار الإسلامية —

فى طريق الإسلام ، فى جرأة لا تردد معها ، وفى وضوح لا لبس فيه ، ومن غير مواربة أو مداورة . . فالوقت لا يتسع للمناورات ، فان أجابوا الدعوة وسلكوا السبيل إلى الغاية ، آزرناهم . . وإن لجأوا إلى المواربة والزوغان ، وتستروا بالأعذار الواهية ، والحجج المردودة ، فنحن حرب على كل زعيم ، أو رئيس حزب ، أو هيئة لا تعمل على نصرة الإسلام ، ولا تسير فى الطريق لاستعادة حكم الإسلام ، ونجدة الإسلام . . سنعلنها خصومة لا سلم فيها ، ولا هوادة معها ، حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين . .

أيها الإخوان : إلى الآن لم تخاصموا حزبا ولا هيئة ، كما أنكم لم تنضموا إليهم كذلك . . ولقد تقول الناس عليكم ، فمن قائل : إنكم وفديون نحاسيون . . ومن قائل : انكم سعديون ماهريون . . ومن . . ومن . . والله يعلم — والعارفون بكم — أنكم من كل ذلك بريئون . . فما اتبعتم غير رسوله زعيما ، وما ارتضيتم غير كتابه منهاجاً ، وما اتخذتم سوى الإسلام غاية . . فدعوا كلام الناس جانباً ، وخذوا فى الجد ، والزمن كفيل بكشف الحقائق . . وما كان الله ليضيع إيمانكم . . إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

إذن فقد كانت المرحلة السابقة مرحلة انتقالية ، وكان لابد منها . . بل لقد اعتبرها الإمام الشهيد مرحلة سلبية . أما بعد هذه المرحلة ،

فالموقف — كما يقول : إيجابى واضح ، لا يعرف التردد ، ولا يتوسط بين الحب والبغض ، فإما ولاء وإما عداء ، ولسنا فى ذلك نخالف خطتنا ، أو ننحرف عن طريقتنا ، أو نغير مسلكنا بالتدخل فى « السياسة » كما يقول الذين لا يعلمون ، ولكنا بذلك ننتقل خطوة ثانية ، فى طريقتنا الإسلامية ، وخطتنا المحمدية ، ومنهاجنا القرآنى ؛ ولا ذنب لنا : أن تكون السياسة جزءاً من الدين ، وأن يشمل الإسلام الحاكمين والمحكومين ، فليس فى تعاليمه : اعط ما لقيصر لقيصر . . وما لله لله . . ولكن فى تعاليمه : قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار . .

لم تقم دعوة الإخوان المسلمين لتكون جمعية دينية بحتة ، لأنها دعوة قامت على فكرة ومبدأ ومنهج وخطة عمل ، فما أكثر الجمعيات الدينية فى جميع الدول الإسلامية بلا استثناء ، ولكن معظم هذه الجمعيات تدور فى حلقة مفرغة ، وأقل القليل منها استطاع أن يترك أثراً متواضعا فى المحيط الذى يعيشه ، وهو فى حد ذاته مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاقليمية . . لكن دعوة الإخوان دعوة شاملة ، وإن اتخذت مصر مركزاً رئيسيا لها ، لكى تكون المنطلق إلى العالم الإسلامى . . والعجيب أن المدخل الوحيد إلى الهجوم على دعـــوة الإخوان

كانت السياسة ، أو اشتغال الإخوان بالسياسة ، كأن المفروض فى الإخوان أن تظل دعوتهم قابعة فى المساجد والزوايا ، لا يتجاوزها إلى المجتمع . . ومعنى هذا أن تترك سياسة الدولة المسلمة من حق القوى الاستعمارية تخطط ، ومن حق أدواتها فى الداخل تنفذ ، ويظل الإسلام فى معزل عن سياسة دولته يعيش – فحسب – فى وجدان الشعوب المسلمة ، نظرياً فى حدود أذهانهم ، وعملياً فى حدود أداء الشعائر . .

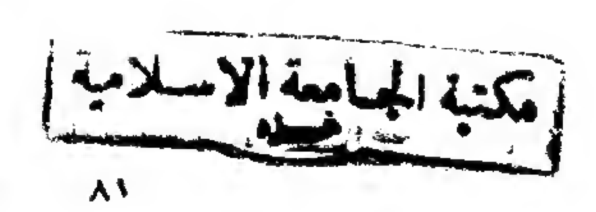
كان لزاماً على الإخوان المسلمين أن يعلنوها صراحة ، أن السياسة جزء لا يتجزأ من الإسلام ، تابعة له ، وليس هو جزءاً منها ولا تابعاً لها ، وتحت عنوان : « نحن والسياسة » يقول الإمام الشهيد فى رسالته : إلى أى شيء ندعو الناس :

« ويقول قوم آخرون : إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون ، ودعوتهم دعوة سياسية ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى ، ولا ندرى : إلى متى تتقارض أمتنا التهم ، وتتبادل الظنون ، وتتنابز بالألقاب ، وتترك يقيناً يؤيده الواقع ، فى سبيل ظن توحيه الشكوك ؟؟

يا قومنا : إننا نناديكم . . والقرآن فى يميننا ، والسنة فى شمالنا ، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا . . وندعوكم إلى الإسلام ، وتعاليم الإسلام ، وأحكام الإسلام ، وهدى الإسلام . .

فان كان هذا من السياسة عندكم ، فهذه سياستنا ، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادىء سياسيا ، فنحن أعرق الناس – والحمد لله – فى السياسة . . وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة ، فقولوا ما شئتم ، فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات ، وانكشفت الغايات . . . إن للإسلام لسياسة فى طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة . . وتلك هى سياستنا لا نبغى بها بديلا ، فسوسوا بها أنفسكم ، واحملوا عليها غيركم ، تظفروا بالعزة الأخروية ، ولتعلمن نبأه بعد حين . . !





القاعدة والشواذ

- في مجال الابتلاء
- أحقاد الصغار
- الناكثون والناكصون

فى مجـــال الابتـــلاء

لقد اقتضت سنة الله فى الحياة ، أن يكون لـكل دعوة إلى الخير قاعدة وشواذ ، ولقد شملت هذه السنة أول ما شملت رسالات الرسل والأنبياء ، ثم من بعدهم دعوات المصلحين فى كل زمان ومكان . . واقتضاء هذه السنة مرتبط بوجود الخير والشر فى الحياة ، وعلى خطين متوازيين لا يلتقيان . .

ولم يكن مثيراً للدهشة أن ووجهت فكرة الإخوان المسلمين بالشواذ ، بل ألا تواجه بهؤلاء الشواذ من داخلها ومن خارجها على السواء ، ولم يكن ليغيب عن ذهن الإمام الشهيد مثل هذا المعنى ، وفى رسالته « دعوتنا » صنف الناس وموقفهم من الفكرة ، وموقف الفكرة منهم ، أصنافاً أربعة ، قال : كل الذى نريده من الناس أن يكونوا أمامنا واحداً من أربعة :

مؤمن : شخص آمن بدعوتنا ، وصدق بقولنا ، وأعجب بمبادئنا ، ورأى فيها خيراً اطمأنت إليه نفسه ، وسكن له فؤاده .. فهذا ندعوه إلى الانضمام إلينا ، والعمل معنا ، حتى يكثر به عدد المجاهدين ،

ويعلو بصوته صوت الداعين . . ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل ، ولا فائدة فى عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها ، والتضحية فى سبيلها ..

متردد : شخص لم يستبن له وجه الحق ، ولم يتعرف فى قولنا على معنى الإخلاص والفائدة ، فهو متوقف متردد . . فهذا نتركه لتردده ، ونوصيه بأن يتصل بنا عن كثب ، ويقرأ عنا من قريب أو بعيد ، ويطالع كتاباتنا ، ويزور أنديتنا . . ويتعرف على إخواننا . . فسيطمئن بعد ذلك لنا — إن شاء الله . .

نفعى : شخص لا يريد أن يبذل معونته إلا إذا عرف ما يعود عليه من فائدة ، وما يجره هذا البذل له من مغنم . . فنقول له : حنانيك . . ! ليس عندنا من جزاء إلا ثواب الله — إن أخلصت ، والجنة إن علم فيك خيراً . . . أما نحن فمغمورون جاهاً ، فقراء مالا . . شأننا التضحية بما معنا ، وبذل ما فى أيدينا ، ورجاؤنا رضوان الله . . . فإن كشف الله الغشاوة عن قلبه ، وأزاح كابوس الطمع عن فؤاده . فسيعلم أن ما عند الله خير وأبقى وسينضم إلى كتيبة الله ليجود بما معه من عرض هذه الحياة الدنيا ، لينال ثواب الله فى العقبى . . . وإن كانت الأخرى ، فالله غنى عمن لا يرى لله الحق الأول فى نفسه وماله ودنياه وآخرته ، وموته وحياته . .

متحامل : شخص ساء فينا ظنه ، وأحاطت بنا شكوكه وريبه . :
فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم ، ولا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج المتشكك ، ويأبى الا أن يلج فى غروره ، ويسدر فى شكوكه ، ويظل مع أوهامه . . . فهذا ندعو الله لنا وله ، أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه ، وأن يلهمنا وإياه الرشد . . وهذا سنظل نحبه ، ونرجو فيئه إلينا ، واقتناعه بدعوتنا . وإنما شعارنا معه ، ما أرشدنا إليه محمد — صلوات الله عليه — من قبل : اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون . . . »

* * *

بالرغم من أن فكرة الإخوان المسلمين كانت واضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار . . لا تعادى إلا من عادى الإسلام أو عاداه الإسلام ، ولا تسالم إلا من سالم الإسلام أو سالمه الإسلام ، إلا أنها عانت الكثير من بعض الناس ، عن قصد وعن غير قصد ، وبسبب وبغير سبب ، لذلك كان لابد أن يحدد الإخوان المسلمين موقف فكرتهم من مسائل عديدة ، هذا الموقف مؤسس بادئ ذى بدء على الإسلام ، كما يقول رائدها :

« دعوتنا إسلامية بكل ما تحتمل الكلمة من معان . . فافهم فيها

ما شئت بعد ذلك ، وأنت فى فهمك هذا مقيد بكتاب الله ، وسنة رسوله ؛ وسيرة السلف الصالحين من المسلمين . . فأما كتاب الله . فهو أساس الإسلام ودعامته . . وأما سنة رسوله ، فهى مبينة الكتاب وشارحته . . وأما سيرة السلف الصالح ، فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره ، الآخذون بتعاليمه ، وهم المثل العملية ، والصورة الماثلة لهذه الأوامر والتعاليم . . »

إن « الوطنية » هى الشغل الشاغل ، فدعاة الوطنية يعتبرون حدود الوطنية بالتخوم الأرضية ، والمعالم الجغرافية ، بينما تعتبرها فكرة الإخوان بالعقيدة ، فكل بقعة فيها مسلم يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وطن عندنا ، له حرمته وقداسته ، وحبه ، والإخلاص له ، والجهاد فى سبيل نصره ، وكل المسلمين فى هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا ، نهتم لهم ، ونشعر بشعورهم ، ونحس بإحساسهم ، أما دعاة الوطنية المجردة — كما يقول الإمام الشهيد — فليسوا كذلك ، لا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض ، ويظهر ذلك الفارق العملى ، فيما لو أرادت أمة أن تقوى نفسها على حساب غيرها ، فنحن لا نرضى ذلك على حساب أى قطر إسلامى ، وإنما نطلب القوة لنا جميعاً ، ودعاة الوطنية المجردة لا يرون بذلك بأساً ، ومن هنا تتفكك الروابط ، وتضعف القوى ، ويضرب العدو بعضهم ببعض . .

ولدينا اليوم مثل بل أمثلة للفارق العملى ، بيننا وبين دعاة الوطنية المجردة :

قضايا الأقليات المسلمة المضطهدة التى تشن عليها حروب الإبادة العملية والمعنوية ، فى الدول الشيوعية ، وفى الدول الصليبية . وحتى فى الدول البوذية ، بمفهوم دعاة الوطنية المجردة ، لا شأن لنا فى مصر ، ولا شأن للمسلمين فى الدول المسلمة ، بمحنة هذه الأقليات المسلمة ، وبمفهوم فكرة الإخوان ، يقع على عاتق الشعوب المسلمة فى كل مكان ، نصرة هذه الأقليات المعذبة ، بل ما هو أفدح وأخس ، أن الدول المسلمة تعامل أعداء الإسلام الذين يذيقون الأقليات المسلمة فى بلادهم الأمرين . . معاملة الأصدقاء ، وتقف من قضايا هذه الأقليات المسلمة موقفاً سلبياً مخزياً . . .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة جانبية ، وإن بدت فى الآونة الأخيرة مسألة جوهرية ، إنها مسألة الوحدة الوطنية ، وقد أشار إليها الإمام المرشد الشهيد :

« وأحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل : إن الجرى على هذا المبدأ — مبدأ الوطنية فى مفهوم فكر الإخوان — يمزق وحدة الأمة التى تتألف من عناصر دينية مختلفة . . فإن الإسلام ، وهو دين

الوحدة والمساواة ، كفل هذه الروابط بين الجميع ، ماداموا متعاونين على الخير . . »

وقد تراءى للسذج أن مفهوم الوطنية لدى فكرة الإخوان ، يعني عدم الاهتمام بقضايا مصر والاشتغال بقضايا غيرها من الدول المسلمة ؛ وحسبنا في الرد على هؤلاء ، أن الإخوان المسلمين كانوا أسبق الناس إلى العمل الفدائي ضد الاحتلال الانجليزي في القنال ، وضد العدوان اليهودي مع المقاومة الوطنية في أزمة مدينة السويس . .

وثانية المسائل : مسألة القومية . .

لقد حدد فكر الإخوان المسلمين موقفهم من هذه المسألة على لسان مرشدهم الإمام الشهيد ، فهو يرى أن القومية التي تهدف إلى أسمى المعاني ، لا يأباها الإسلام – وهو مقياس فكرة الإخوان – بل ينفسح صدور الإخوان لها ويحضون عليها ، ولكن الذي يرفضه فكر الإخوان ، إنما هي قومية الجاهلية ، التي تهدف إلى التحلل من عقدة الإسلام ورباطه ، بدعوى الاعتزاز بالجنس :

« فالإخوان المسلمون لا يؤمنون بهذه القومية الجاهلية . ولا بأشباهها ولا يقولون : فرعونية ، وعربية ، وفينيقية ، وسورية ، ولا شيئاً من هذه الألقاب والأسماء التي يتنابز بها الناس ، لأنهم يؤمنون بما قاله

رسول الله . . الإنسان الكامل ، بل أكمل معلم ، علم الإنسان الخير « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . . الناس لآدم ، وآدم من تراب . . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . ولسنا مع ذلك ننكر خواص الأمم ومميزاتها الخلقية . . ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر . . ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان » .

ومما لا جدال فيه – بعد هذا – أن رابطة العقيدة فى مفهوم فكر الإخوان ، هى أقدس الروابط ، هى أقدس من رابطة الدم ، ورابطة الأرض . .

وثالثة المسائل مسألة الخلافات الدينية . .

إن دعوة الإخوان – كما يقول الإمام الشهيد – دعوة عامة ، لا تنتسب إلى طائفة خاصة ، ولا تنحاز إلى رأى عرف عند الناس بلون خاص . . وهى تتوجه إلى صميم الدين ولبه ، ونود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم ، حتى يكون العمل أجدى ، والإنتاج أعظم وأكبر . . فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية ، غير ملونة بلون ، وهى مع الحق أينما كان . . تحب الإجماع ، وتكره الشذوذ ، وإن أعظم ما منى به المسلمون الفرقة والخلاف ، وأساس ما انتصروا

به الحب والوحدة . . هذه قاعدة أساسية ، وهدف معلوم لكل أخ مسلم ، وعقيدة راسخة فى نفوسنا ، نصدر عنها ، وندعو إليها . . !

* * *

ومع هذا الوضوح والجلاء والبيان لكل ذى بصر وبصيرة معاً ، لم تسلم فكرة الإخوان المسلمين من مناوئين ومنغصين لها ، ومتحاملين وحاقدين عليها ، بل ولم تسلم من التآمر عليها والتربص بها شراً . .

★ ★ ★

أحقـــاد الصغـــار

أيهـــا الإخـــوان :

« أعلن لكم هذه الخطوة . . أدعوكم إلى الجهاد العملى بعد الدعوة القولية . . والجهاد بثمن ، وفيه تضحيات . . وسيكون من نتائج جهادكم هذا فى سبيل الله والإسلام ، أن يتعرض الموظفون منكم للاضطهاد ، وما فوق الاضطهاد . . وأن يتعرض الأحرار منكم للمعاكسة ، وأكثر من المعاكسة . . وأن يدعى المترفون والمترفهون منكم إلى السجون ، وما هو أشق من السجون . . ولتبلون فى أموالكم وأنفسكم . . فمن كان معنا فى هذه الخطوة ، فليتجهز وليستعد لها . . ومن قعدت به ظروفه ، أو صعبت عليه تكاليف الجهاد ، سواء أكان شعبة من شعب الإخوان ، أم فرداً من أعضاء الجماعة . . فليبتعد عن الصف قليلا . . وليدع كتيبة الله تسير . . ثم فليلقنا بعد ذلك فى ميدان النصر — إن شاء الله . . ولا أقول لكم إلا كما قال إبراهيم من قبل : فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم . . »

أردت أن أبدأ بكلمات الإمام الشهيد هذه، ليسأل أى إنسان نفسه: هل كان حسن البنا يعرف اللف والدوران . . أو المواربة والالتواء ؟

إن خصوم الفكرة الإسلامية لم يكن يؤرقهم شيء كما كانت تؤرقهم صراحة الرجل ، ولو كان حسن البنا « لولبياً » أو سياسياً محترفاً . لما ابتليت دعوته بطوفان من الابتلاء والمحن الفاشية . ولما سالت قطرة من دمائه فى سبيل الحق الصريح الذى طالما جهر به . .

ليعد هؤلاء الخصوم قراءة أقوال الرجل . . ويعيدوا النظر فى سلوك الرجل ، ونحن واثقون من أنهم سوف يقتنعون بأن صراحة الرجل فوق الشبهات . . إذا هم تجردوا من الهوى والغرض . .

• • •

ما أكثر الذين نالوا من الرجل والفكر إبان حياته . . وهؤلاء لا نجادلهم اليوم ، وقد تكفل الرجل بالرد عليهم . . وأيضا ، ما أكثر الذين نالوا — ولا يزالون — من الرجل والفكرة بعد أن قضى الرجل نحبه شهيداً فى سبيل الله والحق . . وهؤلاء : فالذين يكتبون التاريخ بلسان القوة من عل ، ومن مراكز السلطة ، وهم واثقون من أن إنساناً — كائناً من كان — لا يملك إلا تجاهلهم فضلا عن التعقيب عليهم ، وشأن هؤلاء شأن أولئك الذين نالوا من الرجل والفكرة ،

والجماعة تعيش محنتها . . لا تملك حرية الحركة فضلا عن حرية الكلمة ، هؤلاء ذوو مروءة ساقطة .. وهم أهون لدينا من أن نناقشهم الحساب . .

سنترك وسائل الإعلام جانباً . . ولا لوم عليها إذا كانت آزرت السلطة فى عدوانها ، بالتشنيع على الرجل والفكرة والجماعة .. لأنها أداة للسلطة لا تملك إلا الطاعة . . . ولنترك جانبا أيضا الخصوم الصغار من الأقزام الحمر وغيرهم . .

لكن المثير للأسى أن يقف إلى جانب السلطة ، من هم أحق الناس بالوقوف إلى جانب الحق . . أو على الأقل أن لا يقفوا إلى جانب الباطل . . ولو بالصمت . .

إثر المحنة التى ألمت بالجماعة أواخر عام ١٩٦٥ م أصدر السيد توفيق عويضة الملازم سابقاً ، والأمين العام حالياً ، للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، أصدر ملحقا بمجلة منبر الإسلام ، فى زهاء ١٥٠ صفحة يوزع مجانا ، أسماه : « رأى الدين فى إخوان الشياطين » كتب معظم مادته بعض علماء الأزهر ، وكتب افتتاحيته شيخ الأزهر الراحل ، الشيخ حسن مأمون ، وبالرغم من أن التهمة التى اتهم بها الإخوان من تلفيق أجهزة الأمن ، واستجابة لأوامر موسكو ، وبالرغم

من أن التحقيق مع الإخوان ، والذى لم تعرفه محاكم التفتيش ، لم يسجل إلا بأحط أساليب الإرهاب أن الإخوان كانوا ينوون التآمر على عبد الناصر وديكتاتورية نظامه . . بل لم يضبط مع الإخوان قطعة سلاح واحدة ، إلا ما أوهمت أجهزة الأمن به الشعب المغلوب على أمره . . . إلا أن المقالات التى كتبت فى ملحق منبر الإسلام . . كان جميعها يدين الجماعة بالإرهاب ، ولقد تطوع بعض مشايخ الأزهر فحكم على الإخوان بالخروج على الإسلام . .

والمجال هنا لا يتسع لذكر الأسماء ، وقد عز علينا أن يلوثوا سمعتهم وضمائرهم ، من كنا نحسن الظن بهم وبرجولتهم ، واضطرونا إلى أن نسقطهم من أعيننـــا . .

ولا يستطيع الإنسان أن يجيب حتى اليوم عن هذا السؤال :

لمـــاذا يقف بعض علماء الأزهر هذا الموقف من الإخوان ؟

إن أول مكتب للإرشاد العام للإخوان المسلمين ، كان نصف أعضائه من أفاضل علماء الأزهر ، ثم إن فكرة الإخوان فكرة إسلامية محضة بلا أدنى جدال . . .

إذن لمـــاذا تصدر جماعة كبار العلماء بالأزهر البيانات إثر كل محنة تلم بالإخوان ، وفيها اتهام لهم بأنهم مارقون من الإسلام ، ومحاربون لله ورسوله ، وساعون فى الأرض فساداً ؟؟ يوم تنفيذ

حكم الإعدام ظلماً فى الشهيد المجاهد الشيخ محمد فرغلى الذى كان واعظاً ، كتب مفتش عام للوعظ بالقاهرة متطوعاً فى جريدة الأهرام يقول : إن هيئة الوعظ والإرشاد بالأزهر ، تتبرأ من المدعو « محمد فرغلى » . وإذا كان هذا المفتش العام بالوعظ يجهل قيمة الشيخ محمد فرغلى الفدائى بالقنال ، الذى أقض على الاحتلال الانجليزى مضاجعه ، حتى لقد كانت إذاعته تعلن عن مكافأة سخية « آلاف الجنيهات » لمن يأتى برأس الشيخ فرغلى أو رأس يوسف طلعت . أو حتى لمن يقبض على كليهما حياً . أقول : إذا كان مفتش الوعظ العام يجهل قدر الشيخ محمد فرغلى ، أفلم يكن من باب اللياقة أن يراعى حق الزمالة على الأقل . .

وخلال محنة عام ١٩٤٨ فى عهد الحكم السعدى قرر صاحب الفضيلة مدير المساجد بوزارة الأوقاف ، إجراء مسابقة بين خطباء المساجد . موضوعها : الآية الكريمة : « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم صادقين » وليس المعنى — هنا — فى بطن الشاعر — إذ كان الهدف من المسابقة ، هو إعطاء فرصة للأئمة لكى ينالوا من جماعة الإخوان ، ما شاء لهم أن ينالوا . .

وفى الجعبة الكثير . . . ولكن . . وما أمر لكن هذه . . . !

★ ★ ★

إن ما لقيته فكرة الإخوان من ابتلاء واضطهاد وإرهاب ، باشرت كل هذه وأكثر منها الأنظمة الحاكمة بأجهزة أمنها ، ووسائل إعلامها ، هو أكثر مما يستوعبه كتاب مهما بلغ من الضخامة ، ولم تكد الدعوة تسترد أنفاسها فى الآونة الأخيرة . . حتى انبرى لها البعض فى محاولة لإثارة الشكوك حولها ، والمخاوف منها ، والتهجم على ماضيها . وشىء طبيعى أن يخطط لهذه المحاولة الفكر اليسارى فى وضوح ، والفكر الصليبي من وراء حجاب ، وشىء طبيعى أيضاً أن يفزع هؤلاء وأولئك لمجرد التقاط الدعوة لشىء من أنفاسها ، لأن جميعهم قد توهموا أن الدعوة التى تلقت أعنف الضربات المتوالية على مسار زهاء ثلاثين عاما ، لا يمكن أن تقوم لها قائمة ، أو يثبت لها وجود بعد ذلك ، ومثل هذه النظرة لا تصدر إلا عن أناس قصيرى النظر ، وذوى رؤية محدودة ، لمنطق الدعوات ذات المبادئ لا الشعارات . . فالمبادئ لا يقضى عليها ، مادام لها جذور فى أعماق الإيمان بها ، وإنما قد يضيق عليها ، أو يتربص بها ، أو تعلن الحرب الباردة حيناً ، والمسخنة أحياناً على أتباعها ، وعليها ذاتها . . ومع ذلك تظل المبادئ مستقرة كالطود ، لا تفتتها العواصف ، بل العواصف هى التى تتفتت عليها . .

لقد أصدر – أخيراً – الكاتب اليسارى الدكتور رفعت السعيد ،

كتابا عنوانه : « حسن البنا . . متى . . وكيف . . ولمـــاذا ؟ »
ونحن لا يسعنا إلا أن نقدر فى الكاتب شجاعته ، فهو لم يخف على القارئ يساريته ، هذه ناحية ، والأخرى ، أنه نشر كتابه ، والإخوان قادرون على مناقشة كتابه ، والرد على ما فيه ، ولو قدر لـكتابه هذا أن يصدر منذ سنوات ، حين كان الإخوان يعيشون محنتهم ، وهم عاجزون عن الرد ، لأسقطناه من أعيننا ، وسمونا بأقلامنا أن نناقشه أو نرد عليه ، وبالطبع لا يسمح المجال هنا بتعقب كل ما فى الكتاب . وإنما هى مجرد لقطات سريعة ، ولعل الظروف تسمح فى القريب بمناقشة كتابه ، وكل ما يمكن أن أقوله : إن الإخوان وهم أصحاب فكر لا تضيق صدورهم بالنقد ، حتى ولو اعتمد على أهواء مغرضة ، وخلفيات حاقدة ، وهم يحفظون عن ظهر قلب قول الحق تبارك وتعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

— فى مقدمة الكتاب يقول الكاتب عن حسن البنا :

« الرجل الذى استمتع بأكبر قدر من الإجلال . . وربما التقديس من مئات الآلاف من الأتباع والمريدين . . .

« والأمر يصعب تصوره . . فالولاء الصوفى للإمام أو الشيخ . .

يصعب حجمه ومغزاه كتابة ، مهما استطالت الأسطر ومهما « استعارت » كل المترادفات البلاغية . . ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما يختلط خضوع المريد لشيخه ، والتزامه بقسم البيعة بالطاعة الصماء ، التى تهدد الناكص عنها بالخروج – ليس فقط من ثياب الجماعة أو المريد – بل ومن ثياب المسلم أيضا . . » .

ونحن نأسف لأن الكاتب لم يوفق فى ابتكار الصفات التى أضفاها على الرجل ، مثل القداسة ، والولاء الصوفى ، والطاعة الصماء . . وربما كان للكاتب عذره ، فهو لم ير الرجل ، ولم يعايشه ، أو يحتك به . . وفى الصفحات الماضية رددت على مثل هذا التحامل الذى ردده البعض من قبل ، وكان فى هيئة الإخوان مكتب للإرشاد ، وهيئة تأسيسية ، ولم يحدث أن انفرد الرجل بقرار ملزم لأحد ، أما أن يعتمد الكاتب – فيما بعد – على أقوال جاءت على لسان المرحوم محمود عبد اللطيف أو على لسان المرحوم هنداوى دوير ، يستشهد بها على « ديكتاتورية » الرجل ، فهذا ما لا يحسن بالكاتب الأريب . وهو يعلم ما اتخذ ضد الأخوين من أساليب الإرهاب التى استوردت عام ١٩٥٤ من النازية ، بل وهو يعلم أن الأخوين كانا مهددين بالموت . . وتم ذلك بعد أسابيع معدودة . .

وللقارئ أن يدهش : من أين للكاتب أن الناكص عن البيعة لدى

الإخوان مهدد بالخروج من الإسلام ؟ وهل فى استطاعة الكاتب أن يأتى لنا بمثال واحد يثبت فيه أن الإخوان حكموا على أى إنسان فاصل الدعوة أو فاصلته الدعوة - بالخروج من الإسلام ؟ لقد اعتزلت مجموعة ثم انشقت بعد ذلك مجموعة أخرى ، وقالوا فى الإخوان والمرشد ، ما لم يقله مالك فى الخمر ، وبعد الثورة بأقل من عامين انشق أيضا أناس كان لهم مكانتهم ، ولا يزالون على قيد الحياة ، فهل حدث أن حكمت الجماعة على أى من هؤلاء بالخروج من الإسلام ؟ ؟

وآمل أن يكون من حقنا أن نسأل الكاتب :

ماذا يفعل بانسان إذا هو خرج على النظام الشيوعى ؟ أى التهم توجه إليه إذا استطاع أن يفر ويهرب بجلده وعنقه ؟ وأى العقوبات توقع عليه إذا قبضت عليه السلطات فى أية دولة شيوعية ؟

والإجابة ليست مشكلة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا تقبل المغالطة . .

وليت الكاتب قرأ كتاب : « مذكرات الدعوة والداعية » قراءة متأن ، ليرى أسلوب المرشد فى معاملة المنشقين ، بل المتآمرين على الدعوة ، وهى فى سنواتها الأولى بمدينة الإسماعيلية . . . ونحن نزوده

أيضا بكلمات للرجل ، ويرجع إليها الكاتب فى رسالة : « دعوتنا » إن شاء ، قال :

« نلتمس العذر كل العذر لمن يخالفوننا فى بعض الفرعيات . . ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبداً حائلا دون ارتباط القلوب ، وتبادل الحب ، والتعاون على الخير . . وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده وأوسع مشتملاته : ألسنا مسلمين وهم كذلك ؟ وألسنا نحب أن ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك ؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا ؟ ففيم الخلاف إذن ؟ ولمـــاذا لا يكون رأينا مجالا للنظر عندهم كرأيهم عندنا ؟ ولمـــاذا لا نتفاهم فى جو الصفاء ، إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم ؟ »

— ويقول الكاتب فى المقدمة أيضا :

« امتدادات الفكر الذى اجتهد الشيخ البنا فى غرسه ، تتجدد الآن بصورة ملحة ، ولعلها أيضا تتشعب بصورة تقلق أصدقاء الدعوة وأعداءها معاً ،فهى مع تشعبها تتخذ مسارات متطرفة ، بل وهوجاء فى أحيان كثيرة ، ومن ثم ، فان أية محاولة جادة لتفهم الامتدادات الحالية بتشعباتها وشظاياها ، تصبح مستحيلة بغير إلقاء نظرة فاحصة إلى البئر التى انزاحت من مياهه كل هذه الموجات جميعاً » .

واضح أن الكاتب يحاول أن يحمل فكر حسن البنا مسئولية ما حدث

أخيراً من موجات متطرفة باسم الدين ، ويعنى – بالطبع – جماعة التكفير والهجرة ، بالرغم من أن هذه الجماعة أثناء المحاكمة هاجمت فكر الإخوان وأعلنت رفضه على لسان كبيرها ، وبالرغم من أن فكر الإخوان هو فكر الإسلام ذاته ، ولم يسجل مثل هذا الفكر المتطرف الذى يقصده الكاتب على تاريخ الإخوان ، وتقولات أجهزة الأمن وأذنابها من وسائل الإعلام وغيرها ، تقولات ساقطة من أساسها . .

والذى يقتضيه الإنصاف من الكاتب المتجرد – وشاء الكاتب ألا يفعله – وهو أن هذه الموجات المتطرفة – على حد تعبيره – ليست إلا رد فعل لمجتمع الجاهلية الذى تعيشه الدول المسلمة اليوم ، وللفراغ الدينى الذى يعايشه الشباب المسلم ، وإذا كان الكاتب يعترف أن هذه الموجات تقلق أصدقاء الدعوة وأعداءها ، فكيف يلقى تبعتها على فكر حسن البنا ؟

حاول الكاتب فى أماكن متفرقة من كتابه أن يغمز فكر الإخوان ، ويجعله مناوئا للتجديد ، مغلقاً فى وجه التقدم الحضارى الذى يتميز به الغرب . .

ويعجب الإنسان لمحاولة الكاتب هذه ، فما عرف فكر الإخوان الجمود ولا التزمت ، ولا يعتبر اعتداد الإخوان بتراثهم وأصول دينهم ، أو إيمانهم بأن فى معطيات الإسلام ما هو كفيل بالتقدم فى

مجالات الإصلاح ، لا يعتبر هذا أو ذاك جموداً ، وبلا أدنى عاطفة أو تعاطف ، يعتبر فكر الإخوان هو الذى بعث الحياة والحركة من جديد فى المفاهيم الإسلامية التى ظلت راكدة ردحاً كبيراً من الزمن . . ولا أظن اليساريين يرضون أن يتهموا بالجمود والرجعية لأنهم ملتزمون بفكر ماركس أو انجلز أو لينين . .

ثم من أين للكاتب أن فكر الإخوان قد رفض الحضارة الغربية رفضاً مطلقاً ؟ إن فكر الإخوان يقوم أى فكر حضارى بمقياس الإسلام ، فهل يطلب منهم أن يقبلوا أو يتقبلوا حضارة مزعومة مناقضة للإسلام ؟ إن الفكر الحضارى الذى يمكن أن يسعد الإنسانية هو فى نظر الفكر الإسلامى فكر مقبول شكلا وموضوعاً ، وأعجب من هذا أن الكاتب نقل من جريدة الأهرام خبرا ، هو فى حد ذاته دليل عليه لا له ، والعجيب أن تاريخ نشر الخبر هو يناير عام ١٩٣٠ ، أى بعد إنشاء دعوة الإخوان بأقل من عامين ، يقول الخبر :

« إن الإخوان يقدمون للبيئة المصرية معهداً علمياً متكاملا ، بانشائها قسما ليلياً للغات الحية ، وآخر للفنون الجميلة ، نذكر منها : الموسيقى الشرقية ، وفن التمثيل من الناحية الأخلاقية ، وأنشأت قسما للحفر – بالإضافة إلى القسم الرياضى – وبجانب هذه الأقسام اهتمت الجماعة

بتكوين مكتبة عامرة بالمؤلفات النفيسة ، والمطبوعات ، مما جعلها مرجعاً وافياً بحاجة الأعضاء » .

لقد نشر الكاتب ما نشرته جريدة الأهرام ، من زاوية خاصة به : فقد لاحظ أن جريدة الأهرام المحافظة تتابع — بصورة غريبة — نشاط الجماعة مقرظة ، ومؤيدة ، ولست أدرى ماذا يقصد الكاتب بهذا الكلام . . ؟ هنا يمكن أن نقول : ان المعنى فى بطن الشاعر . .

وبعد . .

فقد حاول الكاتب ألا يكون كاتبا متجرداً ، فان الاتهامات التى وجهها إلى الرجل والفكرة ، وإلى سلوك الجماعة . . . وإن التحليلات التى اتسمت بالهوى ، والتى خرج منها الكاتب بمجموعة من الهجوم والتهجم ، والسخرية والتهكم ، ليشوه صورة الفكر والرجل والجماعة ، هذه أو تلك لا تجعلنا ننكر حق الكاتب فى إبداء رأيه حراً . . أو نحمله فوق طاقته كى يكون مؤرخا متجرداً ، وخلاصة ما نود أن نقوله : ليس مثيراً للدهشة أن يصدر هذا الكتاب عن كاتب يسارى ملتزم . . وإنما المثير حقاً ألا يصدر عنه مثل هذا الكتاب . . ورحم الله الشاعر العربى :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه . . !

* * *



الناكثون والناكصون

على مائدة الأستاذ مختار عبد العليم المحامى بالاسكندرية ، وفى دارهم ببلدة مشطا محافظة سوهاج ، جلست على يمين الإمام الشهيد . . وكان فى ذهنى شىء طالما تمنيت أن تتاح فرصة للإدلاء به إليه همساً دون أن يسمعه أحد – لا لأنى كنت أخشى الجهر به على ملأ – ولكن لأن تصورى لهذا الشىء لم يكن مستقراً فى ذهنى . .

قلت للإمام الشهيد همساً :

« إن الدعوات لا تقاس بمقياس الكم وإنما بمقياس الكيف . . وأرى أن الانضمام إلى الإخوان بلا قيود أو شروط ، أعطى الفرصة لكل من هب ودب لكى يعلن انتسابه ، ربما كان فيهم من بهرته أضواء الجماعة ، وربما كان فيهم من طلاب المنافع . . وربما . . وربما . . فماذا لو وضعنا ضوابط للذين يريدون الانتساب . . كأن نحدد لهم قدراً من الثقافة الإسلامية يحملونه ويظلون زمنا فى إطار الانتساب وتحت الاختبار ، ثم ينقل الصالح منهم إلى العضوية العاملة ؟

وابتسم الإمام الشهيد ، وقال :

يا فلان .. هل تريد منى ما لم يرده الله من أنبيائه ورسله وهم صفوة خلقه ؟ إن هؤلاء – صلوات الله عليهم – لم يكلفوا البحث عن نوايا الناس ، أو التنقيب فى قلوبهم وصدورهم ، ونحن مقتدون بأنبياء الله ورسله . . نحكم على الناس بظواهرهم ، والله وحده هو الذى يتولى نواياهم وسرائرهم . . .

« يا فلان . . . إن الابتلاء سنة من سنن الحق تبارك وتعالى ، جعلها لازمة للدعوات ، ومن يدرى . . فلعل هذه الدعوة تواجه محناً عاتية ، تعدون فيها الرجال على الأصابع . . ! »

والتزمت الصمت فى اقتناع . . .

وواجهت الدعوة من المحن ما واجهت . . ولم أنس خلالها . . وحتى اليوم كلمات الرجل التى لا يزال رنينها فى ذهنى ، وكنت أكثر تذكاراً لها حين كانت تشتد المحن وتتفاقم فى القسوة والعنف ، وكنت أحاول أن أتلمس عذراً للناكثين الذى لم تسعفهم ظروفهم المعيشية أو ظروفهم الصحية ، أو طاقات احتمالهم ، كى يواجهوا المحنة ، أو يتذرعوا بالثبات على مبادئهم ، بالرغم من أن دعوة الإخوان كانت صريحة معهم حين عرضت عليهم أو حين عرضوا هم أنفسهم عليها ، وكانت صريحة معهم حين عايشوها وعايشتهم . . إنها لم تخدع

أحداً ، ولم تغرر بأحد ، ولم ينخدع إليها أحد ، ولم يغرر بها أحد ، كل شيء فيها واضح لا لبس فيه ولا غموض . .

أجل : كل شيء كان واضحاً للعيان ، فالذين قبلوا الانضمام إليها عن رضى وطواعية ، قبلوا كل مبدأ من مبادئها ، قبلوا : أن الجهاد سبيلهم ، وأن الموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم ، ولم يدر بخلدهم . إلا أن هذا المبدأ جاد لا هزل فيه . . ليس مجرد شعار تهتف الحناجر به ، وليس مفهوم الجهاد — فحسب — أن نحمل سلاحنا لقتال الغاصب والمحتل ، بل أيضا أن نحمل إيماننا ، ونضع أرواحنا فوق أكفنا ، لنواجه الباطل والجور ، فاعتداء الغاصب والمحتل على الأرض ، ليس أفدح خطرا من اعتداء الطاغية والمستبد على الدين . .

لذلك كله كان الإمام الشهيد يقول :

« ومن قعدت به ظروفه . . أو صعبت عليه تكاليف الجهاد — سواء أكان شعبة من شعب الإخوان ، أم فرداً من أعضاء الجماعة — فليبتعد عن الصف قليلا . . وليدع كتيبة الله تسير . . ثم فليلقنا بعد ذلك فى ميدان النصر إن شاء الله . . »

ولذلك كله كان الإمام الشهيد يخاطب الشباب ويقول :

« على هذه القواعد الثابتة . . وإلى هذه التعاليم ندعوكم جميعاً . . فان آمنتم بفكرتنا ، واتبعتم خطواتنا . . وسلكتم معنا سبيل الإسلام

الحنيف ، وتجردتم من كل فكرة سوى ذلك . . ووقفتم لعقيدتكم كل جهودكم . . فهو الخير لكم . . وسيحقق الله بكم – إن شاء الله – ما حقق بأسلافكم فى العصر الأول . . وسيجدد كل عامل صادق منكم فى ميدان الإخوان ما يرضى همته ، ويستغرق مدى نشاطه إن كان من الصادقين . . . وإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب . والتردد بين الدعوات الحائرة . والمناهج الفاشلة ، فان كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة . . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . .

* * *

وحاولت جاهداً أن التمس عذراً – دون جدوى – للذين نكصوا . . أعنى بهم الذين خذلوا الدعوة إبان محنتها ، أو أسلموها لأعدائها ، أو طعنوها من الخلف . . وقد كانوا فى الدعوة إبان أمنها ملء أسماع الإخوان وأبصارهم ، وأحاسيسهم ومشاعرهم . . وقد أفادوا من الدعوة ، وأفادت الدعوة منهم – وهذا حق – وحق أيضا . . أنه لولا هذه الدعوة لظل معظمهم مغموراً . . وقد تربع البعض منهم على كرسى الوزارة – وهذا حظه من الدنيا – إما لأنه أسهم فى إيجاد الشرخ فى جدار الدعوة ، وإما لأن لديه استعداداً لمساندة قوة الباطل على الدعوة . .

لم يكن منشأ هذا النكوص خلافاً فى الرأى مع القيادة الجديدة للجماعة . . فقد اختلف الاستاذ مصطفى مؤمن مع الإمام الشهيد كما اختلف غيره ، لكن هذا الخلاف الذى أدى إلى اعتزال مصطفى مؤمن الجماعة ، لم يؤد به إلى اطلاق العنان لقلمه أو لسانه على الدعوة وقائد الجماعة والمقربين منه ، كما فعل هؤلاء الناكصون الذين أعنيهم . .

صحيح أن الأستاذ السكرى وغيره حين اختلفوا مع الإمام الشهيد ، قد فقدوا أعصابهم ، وقبلوا على أنفسهم أن يسخروا أقلامهم لصحف الوفد — وهو يومئذ خصم للجماعة — لينالوا من الجماعة وقائدها . . لكن الفرق بين هؤلاء وأولئك ، أن السكرى وفرقته فعلوا ما فعلوه والجماعة قائمة ، لها أقلامها وألسنتها التى كانت كفيلة بالتصدى لأى هجوم ، ثم إن خصومة الوفد القائمة على التنافس بينه وبين الجماعة ، كانت خصومة شخصية ، لم يكن هدف الوفد الدعوة الإسلامية ذاتها . . أما الناكصون فقد نكصوا والدعوة مقبلة على محنة ، وتفاقم نكوصهم والدعوة فى أتون المحنة ، والجماعة لا تملك ألسنة ولا أقلاما تدافع بها عن نفسها ، ثم إن الخصومة مع الدعوة لم تكن خصومة شريفة ، بل خصومة ضارية ، دافعها ، وهدفها الحركة الإسلامية ذاتها . . . بل إن النفوذ الأمريكى كان عام ١٩٥٤ هو المخطط

لضرب الحركة الإسلامية ، ومن خلفه وسائل الإعلام فى الغرب الصليبي . . .

★ ★ ★

بقى الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم ومناصبهم عن الدعوة . . . وهؤلاء نسأل الله أن يهديهم ، ويعيدهم إلى الصواب ، ويعيد الصواب إليهم . . فالحياة ليست أموالا وأعمالا ومناصب وأمجاداً — فحسب — بل هى عقيدة ومبدأ ، والإنسان لا يحيا بالمـــال والأهل والمجد ، وإنما بالعقيدة والمبدأ ، والعمل لهما ، والثبات عليهما . . !



كلمـــات أخيرة

كان لابد أن يموت هذا الرجل . . الذى صنع التاريخ ، وحول مجرى الطريق شهيداً . . كما مات عمر وعلى والحسين . . فقد كان الرجل يقتفى خطواتهم . . مات فى عمر الزهر النضير ، وفى نفس السن التى مات فيها كثير من العبـــاقرة ، ورجال الفكر . . وقضى وهو يسطع ويتألق . . وعاش الرجل كل لحظة من حياته ، بعد أن عجزت كل وسائل الإغراء فى تحويله عن نقاء الفكرة وسلامة الهدف . .

لم يحن رأســـه . . ولم يتراجع . . ولم يتردد أمـام المثبطـــات ولا المهددات . . وكان الرجل قذى فى عيون بعض الناس . . وحاول الكثيرون أن يفيدوا من القوة التى يسيطر عليها ، فقال لهم : إن أنصاره ليسوا عصا فى يد أحد . . إنهم لله وحده . . وحاول البعض أن يضموه إليهم أو يطووه ، فكان أصلب عوداً من أن يخدع أو ينطوى . . »

ماذا يمكن أن يضيفه الكاتب — أى كاتب — إلى هذه الكلمات التى سجلها كاتب أمريكى له مقامه ومكانته بين كتاب العالم ؟ . .

ويخطئ من يظن : أن الإخوان المسلمين دعاة تفريق عنصرى بين طبقات الأمة . . فنحن نعلم أن الإسلام عنى أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين الإنسان . . »

وهذه هى دعوة الإخوان فى كلمات موجزة ، جاءت على لسان مؤسسها وداعيتها الأول ، الإمام الشهيد . . فماذا يمكن أن يضيف إليها الكاتب — أى كاتب ؟

وهل يمكن لإنسان — بعد هذا الوضوح — أن يثير حول الفكرة شبهة من الشبهات أو ارجافاً من الأراجيف ، إلا إذا كان هذا الإنسان مجرداً من الضمير ، عاجزاً عن أن يكون متجرداً من الشهوة والهوى . .

★ ★ ★

« ولكن البلاد لم تستطع أن تقدر هذه النهضة التى قامت بها حركة الإخوان قدرها ، كما أن المعدة الضعيفة المريضة ، لا تستطيع أن تهضم الغذاء الصالح القوى ، فتتخم فى بعض الأحيان . . فكان كل ما يعلمه الجميع — يعنى المحنة — وكانت كارثة إسلامية ، لم يخسر فيها الإخوان فقط ، بل خسر فيها الإسلام ، ورزئ بها العالم الإسلامى .

« ولكنى أعتقد أن الله — سبحانه — قد أراد بهذه الدعوة خيراً . » إذ ردها قسراً إلى مرحلة الدعوة الإسلامية الأولى ، لتزداد هذه الدعوة

نضجاً ، وليزداد رجالها تربية وحنكة ، ومبادئها رسوخاً وقوة ، وأخذ بنواصي العاملين الدعاة ، ليفكروا فى مستقبل هذه الدعوة ، ويرسموا خطتها ، ويحكموا وضعها وأسلوبها » .

وهذه كلمات العلامة المسلم الهندى فى رسالته : أريد أن أتحدث الإخوان ، فماذا يمكن أن يضيفه الكاتب – أى كاتب إليها ؟ إنها كلمات نابضة من العقل والقلب معاً . . .

★ ★ ★

وبعد . . .

فقد سألنى بعض شباب الجامعة فى إحدى المحاضرات الإسلامية : هل هناك أمل فى أن تعود دعوة الإخوان المسلمين إلى الحياة ؟

وقلت :

أولا : متى كانت دعوة الإخوان غائبة عن الحياة حتى تعود إليها . . إن المبادئ الحية لا تموت ، ولا تخضع لأسوار سجن أو معتقل .

ثانياً : لا أتمنى على الله أن تعود إلى الوجود الشكلى بقرار . . لأن الذى يملك أن يمنح الوجود لشىء ، يملك أيضا أن يسلبه إياه .. بل أتمنى على الله ، أن تفرض مبادئ الدعوة نفسها على المجتمع الذى لابد أن يحس بها ، إن قريباً . . وإن بعيداً . . . وما ذلك على الله ببعيد . . !

رقم الإيداع ٣٤٤١ / ٧٨

الترقيم الدولى ٤ – ١٥ – ١ – ٧٣ – ١٩٧٧